مصطفى غلفان

اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة

حفريات النشأة والتكوين

شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

الكتاب : اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة ـ حفريات النشأة والتكوين
تأليف : مصطفى غلفان
الناشـر : شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء
الهاتف : 022.22.25.22 / 022.22.15.34 ـ الفاكس : 022.20.10.03
البريد الإلكتروني : madariss@almadariss.com
الموقع على الوب : www.almadariss.com
التصفيف الإلكتروني والتوزيع : مكتبة المدارس
12، شارع الحسن الثاني ـ الدار البيضاء
الهاتف : 43 / 42 / 022.26.67.41

الطبعة الأولى : 1427/ 2006
رقم الإيداع القانوني : 1754 / 2006
ردمـك : 1 - 7286 - 0 - 9954

لوحة الغلاف مأخوذة من كتاب :
REGARD SUR LA PEINTURE CONTEMPORAINE AU MAROC
Alain Flamand. P.190

الدار البيضاء

مُقدِّمة

كان ينبغي لهذا الكتاب أن يصدر قبل صنوه الذي صدر منذ سنوات تحت عنوان **اللسانيات العربية**، عالجت فيه المصادر والأسس النظرية والمنهجية المعتمدة في الكتابات اللسانية العربية بمختلف اتجاهاتها، وذلك باعتبار السبق التاريخي للمرحلة التي يتناولها الكتاب الحالي.

والدراستان تجمعهما رؤية منهجية واحدة هي التتبع النقدي التحليلي للخطاب اللغوي العربي الحديث للوقوف على مدى تأثير اللسانيات العامة في الدرس اللساني العربي الحديث، وتحديدا منذ بداية ما يعرف بالنهضة العربية. إن ثقافة تهتم بلغتها أيما اهتمام كما هو الشأن بالنسبة للثقافة العربية، لم تكن لتصم آذانها أمام هذا الكم الهائل من الأفكار اللغوية الجديدة القادمة من الغرب. وكان من المتوقع لهذه الأفكار أن تجد موقعا ما في أحضان الثقافة العربية، رغم حصار التقليد والمحافظة، سواء قُبِلَت مضامينها أم رُفِضَتْ.

وليس عيبا أن نقول إن استيعاب أساسيات المنهج المقارن والتاريخي التي سادت أوربا لم يكن فوريا أو تاما في الثقافة اللغوية العربية الحديثة، بل كان استيعابا ناقصا مبتوراً في المستويين النظري و التطبيقي. لكن المؤسف له أن لا يلتفت المؤرخون والمهتمون بالبحث اللغوي الحديث إلا في حالات محصورة جداً، لاستخلاص العبر من هذا التلاقح بين الفكرين الأوربي والعربي. إن تاريخ معرفة ما قد يكون حاسما في سيرورة هذه المعرفة وتطورها، كما يكون عاملا أساسياً في تلاشيها وانحطاطها.

والملاحظ أن الفكر اللغوي العربي اقترح خلال ما يعرف بالنهضة العربية جملة من الافتراضات اللغوية الهامة، وقدم أعمالا وخدمات جليلة ليس بإمكان أي أحد أن

ينكرها، تجوهلت ولم يتم استثمارها لوصف تاريخي لبنيات اللغة العربية في المستوى الصوتي والصرفي والتركيبي.

وبصفة عامة، وضع الفكر اللغوي العربي إبان مرحلة النهضة أسس تفكير لغوي ينطلق من واقع اللغة العربية للإجابة عن تساؤلات لغوية عملية تتعلق بكيفية تطويع اللغة العربية، وجعلها مسايرة للتطور الحضاري. ومع ذلك، لابد من أن نسأل : إلى أي حد نجح المشروع اللغوي النهضوي ؟ ومابقي منه اليوم ؟ وما نتائج الأبحاث اللغوية لهذه المرحلة وأثرها لاحقاً في الواقع اللغوي العربي عامة وفي اللغة العربية بصفة خاصة ؟

ليس الهدف محاكمة الأعمال اللسانية لهذه المرحلة أو التقليل منها، نحن نعلم أن الحقيقة في جميع مجالات المعرفة الإنسانية نسبية ومؤقتة. لقد كان همنا بالأساس التنبيه إلى بعض الفرص التاريخية الهامة التي أضاعتها الثقافة العربية الحديثة في علاقتها مع الدرس اللساني الناشيء.

من هذه المنطلقات العامة نعتبر هذه الدراسة تنقيباً وحفراً في واقع اللسانيات في علاقتها بالثقافة اللغوية العربية الحديثة. اللسانيات من حيث هي معرفة علمية ومناهج تحليل واضحة المعالم والحدود، والثقافة العربية الحديثة من حيث هي تصورات وقيم وخلفيات فكرية واجتماعية وسياسية. هذه الأمور متفرقة أو مجتمعة تحكم بشكل أو بآخر علاقتنا المتعددة. وحدها طبيعة هذه العلاقة بكل أبعادها التاريخية والفكرية تمكننا من الوقوف على مظاهر الخلل والقصور والصعوبات التي تعاني منها اللسانيات اليوم في العالم العربي في بُعْدها النظري والتطبيقي والعملي، وما أكثرها.

ولفهم ما جرى بكل موضوعية وشفافية، كان لابد من توضيح مختلف جوانب هذه العلاقة بدءا بالنشأة ومروراً بمراحل التكوين المتنوعة ولحظات القوة والوهن، وبإشارات الالتباس والغموض. ومن المؤسف له، أننا في مجال اللسانيات كما في معارف أخرى، لم نؤسس بعد ثقافة المساءلة المستمرة ومراجعة الذات لما نقوم به.

تعيش اللسانيات في الثقافة العربية الراهنة نوعاً من العبث النظري والتردي اللذين يخلفان وضعية التذمر واليأس من لسانيات كان يُعَوَّل عليها كثيراً لتثبيت أقدام الحداثة والمعاصرة، ولتذليل الصعاب وحل مشاكل لغوية جمة. ما النتيجة ؟

ـ النتيجة، أننا لم نتمكن من الاستمرار في مشروع فكري نجد مبادراته الأولى في

أعمال عدد من الرواد أمثال جورجي زيدان والكرملي وجبر ضومط والعلايلي وغيرهم من الذين لم يُلتَفت بكل جدية لما قدموا من أعمال لغوية سبقت عصرها بكل تأكيد، سواء أتم نقلها مباشرة عن الغرب أم تم التصرف في نقلها للثقافة العربية.

ـ النتيجة، أننا في الثقافة العربية أمام لسانيات لا تراوح مكانها، لسانيات فقدت كل البريق واللمعان اللذين دوخا المثقفين والباحثين العرب إلى عهد قريب.

ـ النتيجة، أننا لا نتوفر على درس لساني عربي قائم الذات واضح المعالم والحدود، له خاصيته النظرية والمنهجية وبرامجه العلمية الراهنة والمستقبلية، فاعل في المحيط ويواكب التطور محليا وعالميا.

ـ النتيجة أيضاً أننا أمام متلق يُجْهَلُ كل شيء عن إمكاناته المعرفية والعلمية، ومع ذلك نخاطبه في كل شيَء وعن لا شيء.

الفصل الأول

الجهود اللغوية في عصر النهضة

1.1- وضعية البحث اللغوي العربي في بداية النهضة

1.1.1- النقل والترجمة

بدأت النهضة العربية أول ما بدأت في مصر على عهد محمد علي[1]. وكان لهذه النهضة كما هو معروف أبعاد مختلفة سياسية واجتماعية وفكرية، سنقصر اهتمامنا في هذا الفصل على الجوانب الفكرية منها. فبعد عهود غير قصيرة من الانحطاط، تم دخول كثير من العلوم والمعارف الجديدة إلى حقل الثقافة العربية أو على الأصح دخولها من جديد «كالطب والطبيعيات والرياضيات والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية»[2]. وواكب دخول هذه المعارف إنشاء المدارس والمعاهد العلمية المختصة في مجالات المعرفة المتعددة، كما جيء بالمطابع وأنشئت المجالات والصحف وطبعت الكتب[3].

وبدأ الانتعاش يدب في شرايين الحياة الفكرية. وتطلبت الحركة الفكرية الجديدة بمصر وغيرها من الأقطار العربية من اللغة العربية جهودا جبارة لمواكبة مظاهر التحولات التي عرفتها مناحي الحياة العربية، مما نشأ معه حركة لغوية جديدة تمحورت أساسا حول الترجمة إلى العربية وإيجاد المصطلح العربي الملائم.

وإذا كان «عهد التأسيس السياسي يبدأ بالإصلاح اللغوي»[4]، فمن الطبيعي أن يرتبط تطوير الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بتطوير اللغة نظراً لما لها في كل عصر ومكان من دور فعال في كل نهضة شاملة و حقيقية. وبقدر ما تتصدع الحياة السياسية والاجتماعية ينعكس ذلك على المستوى الفكري واللغوي مثلما حصل للغة العربية عبر تاريخها الطويل. إن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة واكبه ازدهار لغوي لا مثيل له. واستطاعت اللغة العربية أن تُعبّر بيسر عن كل التطورات الحضارية التي عرفتها الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية بعد انتشارها وتوسعها شرقاً وغرباً. بيد أن هذا الوضع النشيط للغة العربية تغير في مرحلة ما سمي

1- استولى محمد علي على عرش مصر سنة 1805 وتوفي سنة 1849 .

2- جورجي زيدان : تاريخ الأدب العربي، ج. 4، ص : 164 . دار الهلال القاهرة. د.ت [بعناية شوقي ضيف].

3- عمر الدسوقي : في الأدب العربي الحديث، ج 1، ص : 51 وما بعدها، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1974/8.

4- أمين الخولي : مشكلات حياتنا اللغوية، ص : 5 ؛ المكتبة العصرية، بيروت. (د.ت) ط 1 / 1956.

بعصور الانحطاط. لقد شهدت القرون الثلاثة السابقة على القرن التاسع عشر مرحلة انحطاط حضاري شامل في العالم العربي جميعه فجمدت الأفكار وضاعت اللغة»[1].

بدأت النهضة العربية إذن نهضة سياسية واجتماعية وفكرية تعتمد سياسة إصلاحية جديدة «كان عمادها النقل عن الغرب، فترجمت الكتب الأوروبية في مختلف العلوم الحديثة إلى اللغة العربية[2]»، وعمت الترجمة جميع مجالات المعرفة، فانتشرت المؤلفات المترجمة عن اللغات الأوروبية انتشاراً واسعاً بلغ أن «أغلب الكتب التي ظهرت في عصر محمد علي كانت كتباً مترجمة في شتى ضروب العلوم والفنون. ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن. أما الكتب العلمية البحتة فكان أغلبها ترجمة. وقد انتشرت هذه الكتب كثيرا بتشجيع محمد علي لمترجميها ومكافأتهم مكافآت سخية، وبطبعها على نفقة الدولة في مطبعة بولاق»[3].

كان تَعرُّف مصر على المدنية الغربية الحديثة بعد حملة نابليون ومحاولات تسرب الإنجليز إلى الحياة المصرية قد فتح الباب أمام دخول ألفاظ جديدة إلى اللغة العربية «تتعلق بشتى علوم وفنون وصناعة المدنية العصرية كالمخترعات وأجزائها وشتى العقاقير والأدوات وأصناف المطاعم والمشارب وأوانيها، وضروب الأثاث وما إليه، ومظاهر الحياة الحضرية من ألعاب ومجامع ونحوها»[4].

لهذه الأسباب الحضارية نشطت الحركة اللغوية المتمثلة في عملية الترجمة التي واكبت نقل العلوم الحديثة إلى العربية، والبحث في المصطلحات والتعابير العربية الجديدة الملائمة للمعلومات والألفاظ المنقولة عن اللغات الأجنبية. وحمل عبء هذه الترجمة أعضاء وفود البعثات التي تم إرسالها إلى أوربا على عهد محمد علي ـ ومن جاء بعده ـ لتحصيل العلوم الأوروبية الحديثة ونقلها إلى العربية. وكان للبعثات « أعظم فضل في إحياء اللغة وجعلها مسايرة للعلم الحديث بما ترجم أعضاؤها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات»[5].

1-إبراهيم مذكور : مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، ص 12، المطبعة الأميرية، القاهرة 1964.
2- جمال الدين الشيال : رفاعة الطهطاوي، ص 15. دار المعارف القاهرة، ط 2 / 1980 .
3- عمر الدسوقي : المصدر السابق، ج 1، ص 85 - 86 .
4- تيمور محمود : مشكلات اللغة العربية، ص 10 - 11.
5- عمر الدسوقي : المصدر نفسه، ج 1، ص 29.

ونتيجة لمتطلبات هذه الحركة اللغوية القائمة على الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية، وما تقتضيه من كفاءات قادرة على تطويع أساليب العربية دون الإخلال بها، تم في مصر إنشاء مدرسة الألسن والترجمة سنة 1837[1]، وأسندت إدارتها لرفاعة الطهطاوي (1801 - 1879). « وكان الطهطاوي وهو يخطط لإنشاء مدرسة الألسن بالقاهرة، قد استحضر أمامه نموذج مدرسة الألسن الشرقية بباريس التي تأسست سنة 1795 »[2]. وَلِنفس الغاية، أي متطلبات الترجمة والنقل، «شهدت تونس سنة 1840 تأسيس مدرسة باردو العسكرية، وهي أول مدرسة تعليمية رسمية تعنى بترجمة النصوص والمؤلفات الأوروبية للغة العربية»[3].

إن المشاكل اللغوية التي طغت على هذه المرحلة تمحورت حول إجماع المهتمين باللغة حول ضرورة إحياء اللغة العربية وإنمائها استجابةً لحاجات النهضة الفكرية الحديثة. وساهمت المشاكل التقنية الناجمة عن الترجمة إلى العربية في توجيه اهتمامات اللغويين العرب إلى البحث في كل ما من شأنه أن يساعد على إيجاد المصطلحات العلمية وألفاظ الحياة اليومية وتطوير أساليب العربية. وكانت الترجمة أيضاً وراء قيام النواة الأولى لأول مجمع لغوي عربي بدمشق الذي «انطلقت بدايته (المجمع) بإنشاء الشعبة الأولى للترجمة والتأليف في خريف 1918»[4].

ومن الطبيعي جداً أن الرواد اللغويين العرب لم يضعوا اللغة العربية موضع الدرس النظري والمنهجي، بل «سلكوا فيها خطوات عملية دللوا بها ما واجههم من مشاكل وقضايا ودفعوا اللغة للاستجابة الفورية لمطالب النهضة العلمية والحربية والصناعية التي ظهرت، فأحيوا ألفاظاً وأساليب واصطلاحات، وحاولوا من ذلك ما حاولوا حتى أخرجوا ذلك النتاج القيم في الميادين المختلفة، عربي الصورة إلى الحد الذي استطاعوه»[5].

1- جورجي زيدان : المصدر نفسه.

2- محمود فهمي حجازي : أصول الفكر العربي الحديث، ص 125، وص 132. دار الفكر العربي، القاهرة 1974.

3- جمعة شيخه : الدراسات اللغوية بكلية الآداب (قسم العربية)، ص 352 : ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، تونس 1983.

4- محمد رشاد الحمزاوي : مجمع اللغة العربية، ص 12، دار التركي، تونس 1988.

5- أمين الخولي : هذا النحو، ص 40، مجلة كلية الآداب، القاهرة 1944.

وبالفعل لم يكن للغويين المحدثين الأوائل ما يعتمدون من زاد نظري ومنهجي سوى معرفتهم الدقيقة واطلاعهم الواسع على المصادر اللغوية العربية القديمة في النحو والصرف واللغة، يقودهم فيما يحثون شعورهم الديني والوطني وغيرتهم على العربية، وتحذوهم رغبتهم الأكيدة للمحافظة عليها وتنميتها في الوقت ذاته.

على هذه الصورة بدأ التفكير اللغوي العربي الحديث في مصر مشكلاً خطاباً لغوياً تتجلى فيه كل الاهتمامات التي شغلت بال الفكر العربي إبان النهضة بشأن دور اللغة العربية في اليقظة العربية. وتتلخص هذه الاهتمامات في الأسئلة التالية :

ـ «هل تصلح لغتنا العربية أن تكون أداة لمسايرة الحضارة ؟

ـ هل تضطلع بما يطلب منها للتعبير عن مقتضيات العلم والفن والصناعة ؟

ـ أ يرجع التقصير إليها أم إلينا ؟[1]».

لهذه الأسباب تميزت الكتابة اللغوية النهضوية ما بين نهاية القرن التاسع عشر ومنتصف العشرين بالبحث في الوسائل الكفيلة بتنمية اللغة العربية وجعلها مسايرة لما يطرأ على الحياة العربية من جديد في شتى مناحي العلم والعرفان. واهتم لغويو هذه الفترة بدراسة بعض هذه الوسائل من اشتقاق وتعريب ودخيل وقياس[2]. كما عكست الأدبيات اللغوية الصادرة في هذه الحقبة انشغال المفكرين والمثقفين والأدباء جميعهم بتنمية اللغة العربية، كما يظهر في موضوعات الأعداد الأولى من مجلتي المجمع العلمي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وليس معنى هذا أن الكتابة اللغوية العربية لم تعد تهتم اليوم بهذه القضايا. إن البحث اللغوي العربي ما فتئ في الوقت الراهن يعالج الموضوعات نفسها في إطار خطة منهجية جديدة تدعمها مؤسسات مختصة إقليمية وجهوية، مثلما هو الشأن بالنسبة لمكتب تنسيق التعريب بالرباط ولمجامع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد وعمان، فضلا عن المجهودات الفردية التي تصدر عن بعض اللغويين العرب

1- محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية، ص 4.

2- لعل أشهر من كتب في هذا الموضوع عبد القادر المغربي في بحثه عن «الاشتقاق والتعريب» [الصادر سنة 1902 بالقاهرة] ومحمد حسين الخضر صاحب «القياس في اللغة العربية» [نشر بالقاهرة سنة 1903].

المعاصرين في مجموع الأقطار العربية[1].

2.1- الجهود اللغوية الأولى في لبنان

إذا انتقلنا خارج مصر ـ مهد النهضة العربية ومركزها ـ، فإن الوضع الفكري في باقي البلدان العربية ـ عدا لبنان ـ لم يكن يبعث على الارتياح، إذ قلَّ الاهتمام باللغة العربية قراءة وكتابة ودراسة، بحيث «أصبحت تستطيع أن تَعُدَّ في دمشق مثلاً في مطلع المائة الرابعة عشر للهجرة مائة أو أكثر ممن يحفظون المتون في النحو والصرف وعلوم البلاغة والحديث والتفسير واللغة، ثم لا يستطيع أحدهم أن يكتب سطرين مفيدين واضحين سليمين من الأغلاط والركة. هذا شأن العلماء، أما سواهم فيكفي أن تعرف أن رسالة يأتي بها البريد إلى أحد الناس فيدور بها على أهل حيه ثم على الحي المجاور، فلا يجد أحدا يفك رموزها ينبئه بمضمونها»[2].

إذا كان حال العربية وأهلها على هذا الوضع المتردي، أمكننا أن نتصور قيمة كل مجهود يبذل في شأن إحياء اللغة العربية ويَبْعَثُ فيها الروح من جديد لتصبح منطلقاً للتغييرات الفكرية التي بدأت رياحها تهب على العالم العربي شرقاً وغرباً.

يمكن القول إن لبنان عرف وضعاً فكرياً متميزاً عن باقي الأقطار العربية مثل مصر وسوريا والعراق. وتحقق هذا التمايز نتيجة عوامل عدة منها : «حركة التحرر الوطني المبكرة التي خاضها لبنان قبل غيره من البلدان العربية، وطبيعة تكوين المجتمع اللبناني المتجلية في شرائح عرقية ودينية ولغوية متنوعة. كما كان اللبنانيون في مهاجرتهم بين مشرق ومغرب قد خالطوا الشعوب وتقلبوا في مختلف الحضارات. وكانت المطابع قد كثرت وكثرت الجرائد (...) وبدا في الألفة والمجتمع والمعاش ألفاظ لا عهد لجماعتنا بها»[3].

1- من ذلك مثلاً مؤلف عبد الصبور شاهين : العربية لغة العلوم والتقنية، دار الاعتصام القاهرة، ط 1986/2 [1983]. وكذلك العديد من الأبحاث المنشورة في مجلة اللسان العربي التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط منذ الستينيات.

2- سعيد الأفغاني : من حاضر اللغة العربية في الشام، ص 19. دار الفكر، بيروت، ط 1971/2.

3- أمين نخلة : الحركة اللغوية في لبنان في الصدر الأول من القرن العشرين، ص 15، مطبعة دار الكتب، بيروت، ط 1958/2 [1947].

وساهمت هذه العوامل مجتمعة في الدور الطليعي الذي لعبه لبنان والمكانة التي احتلها فكرياً في العالم العربي. وشهد لبنان بسبب هذه الديناميكة بداية حركة لغوية ذائبة، فكَثُرَ المشتغلون بأمور اللغة وقضاياها لأسباب دينية (تبشيرية) وحضارية، فظهرت المقالات والتآليف اللغوية في المعاجم والنحو واللغة وتصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة والمباحث الفلسفية العامة في نشأة اللغة وأصلها وغيرها. كما ساهم كثير من اللبنانيين في وضع لبنات الفكر اللغوي العربي الحديث خارج لبنان. «فالكلام على ما كان من أمر اللغة في لبنان (...) لا يجوز أن يقصر على اللبنانيين الذين صنعوا في العربية تحت سمائه، فإنما المسألة بينهم وبين إخوانهم الذين صنعوا تحت السماء المصرية مسألة مناصفة ترد جملتها في تأريخ اللغة إلى الحصة اللبنانية»[1].

3.1- اهتمامات لغويي لبنان

تتميز الكتابة اللغوية النهضوية في لبنان إبان الفترة التي نتحدث عنها ـ أي ما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين ـ بسمات الخطاب اللغوي العربي النهضوي التي سبقت الإشارة إليها، سواء أمن حيث المصادر، أم من حيث الأسس النظرية والمنهجية. غير أن اللغويين في لبنان كانوا أكثر تنوعا فيما يرجع للقضايا التي درسوها وأكثر انفتاحا على ما استجد في الثقافات الأجنبية من نظريات لغوية.

لا تختلف الموضوعات اللغوية التي تم تناولها رواد الكتابة اللغوية في لبنان ودرسوها إلا لماما عن موضوعات الخطاب اللغوي العربي النهضوي كما سبق تحديدها مع عناية اللبنايين الفائقة بالتأليف المعجمي والبحث في الفلسفة اللغوية. وقد تمحورت اهتمامات لغويي لبنان حول القضايا اللغوية التالية :

1.3.1- البحث في المعاجم العربية

اهتم اللبنانيون بهذا المجال اهتماماًبالغاً حتى أصبحوا «أصحاب» الأمهات المطولات، مثل «الجاسوس على القاموس» و «محيط المحيط» و «قطره» و«أقرب الموارد» و «ذيله» و «البستان» و «فاكهته» وما تفرع عنها، وانضوى إليها من «منجدات» و «معتمدات» و «معاجم» و «قواميس» حتى غدا كل متمرس بالعربية في

1- أمين نخلة : المصدر نفسه، ص 13 - 14 .

مشارق الأرض ومغاربها إذا اعتاص عليه تعبيراً لجأ حتما إلى معجم لبناني» [1]والواقع أن المعجمات المتوافرة في الثقافة العربية الحديثة هي التي خلفها لنا أحمد فارس الشدياق (1804 - 1874) وبطرس البستاني (1819 - 1883) وسعيد الشرتوني (1849 - 1912) ولويس المعلوف وجرجس همام وعبد الله البستاني وأحمد رضا وغيرهم[2].

واستهدف هذا النشاط المعجمي الهائل خدمة اللغة العربية بالبحث الذؤوب عن معجم حديث « يكون سهل الترتيب، واضح التعاريف، شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء وكل من اشتهر بالتأليف، سهل المجتنى، داني الفوائد، بَيِّن العبارة، وافي المقاصد»[3] وكان سعي كثير من المهتمين بدراسة المعجم العربي نقداً وتأليفاً تبيان قدرة اللغة العربية على استيعاب ألفاظ الحضارة الجديدة والمصطلحات الفنية والعلمية، مثلما هو الأمر في باقي اللغات، رداً على من «يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمن لهاتين الخطتين [يقصد للتجارة وعبء الإمارة : أي التنظيم السياسي]، فلا بد من الاستعانة بكلام الأجانب وإن أدى ذلك إلى خطتين. **كلا وربك ما بروا ولا صدقوا وما دروا** إنهم بالذي عاب نفسه لحقوا، لأنهم ما قالوا ذلك إلا لحرمانهم منها وقصورهم عنها، فمن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها وتَبَيُّن لأصولها من متفرعاتها وإفراز لأفعالها من مشتقاتها، وذلك لا يتأتى إلا بإظهار ما في القاموس من القصور والخلل»[4].

ورفض هؤلاء المعجميون اللبنانيون دعوى عجز اللغة العربية عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة التي نقلت بعض مظاهرها إلى العالم العربي. ولم يكن للبحث في معجم اللغة العربية من غاية أخرى سوى الوصول إلى اللفظ العربي الحديث الذي يمكن وضعه مقابل ما تقدمه «المدنية الحديثة» من شتى ضروب الألفاظ والمصطلحات الفنية والعلمية. في هذا الاتجاه، نجد أن كثيراً من الأسماء العربية الفصيحة المتداولة اليوم

1- فؤاد أفرام البستاني في تمهيده لمعجم عبد الله العلايلي : المرجع، المجلد الأول، ص : ج، دار المعجم العربي، بيروت، ط 1963/1.

2- عفيف عبد الرحمان : من قضايا المعجمية العربية المعاصرة في المعجمية العربية المعاصرة، ص 383، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987.

3- أحمد فارس الشدياق : الجاسوس على القاموس، ص 3، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1299 هـ /1881 م.

4- أحمد فارس الشدياق : المصدر المذكور، ص 3.

وضعها اللغويون اللبنانيون في المرحلة التي نحن بصددها. «فمن الكلمات التي وضعها أحمد فارس الشدياق : الجريدة والمؤتمر والحافلة والمنطاد والمطعم «لدكان الأكل» والسلك البرقي «التلغراف»[1]، وله أيضا «إعلام» و «جواز السفر» وانتخاب (...) والملاكمة والملهى والتمثيل والممثل والمعرض والشمسية والجامعة والمنتزه»[2].

وسار على نهج الشدياق لغويون لبنانيون آخرون. « فَلَمّا أقبل القرن العشرون واستفاضت النهضة أخذت تدور في لغة الكتابة ألفاظ لبنانية كثيرة منها ما وضعه الشيخ عبد الله البستاني كالآنسة والعقيلة (...) ومنها ما وضعه الدكتور يعقوب صروف (1852-1927)، التلفزة والنشوء والارتقاء والصلب (للفولاذ)، وما وضعه الشيخ سعيد الشرتوني كالعاديات (للأشياء القديمة) والقطار (السكة الحديد) والقاطرة (للآلة البخارية أو الكهربائية) وما وضعه الأستاذ سليمان البستاني (1856 - 1925) كالملحمة (للطوال من القصائد القصصية) وما وضعه الدكتور أمين باشا معلوف كالنفط (للبترول) (..) أما الشيخ إبراهيم اليازجي (1847 - 1906) (..) فله من الألفاظ الخفيفة التي تتهالك عليها الأقلام شيء كثير منه : المجلة والبيئة والحساء والدراجة والحاكي واللولب والشعار والمقصف والمأساة»[3].

في هذا العدد البسيط من الأمثلة ما يبين بوضوح حرص هذه الطائفة من اللغويين اللبنانيين على جعل اللغة العربية لغة وظيفية قادرة على التكيف مع متطلبات العصر الحديث بالسرعة المطلوبة.

2.3.1- البحث في الفلسفة اللغوية

يتعلق الأمر بالكتابة اللغوية اللبنانية التي بحثت أصل اللغة العربية وكيفية نشأتها وتطور بنية الكلمة فيها، وعلاقة العربية بأخواتها السامية، وكيف أن «كل طائفة من اللغات مهما تبدلت هيئاتها وتعددت فروعها في الظاهر، فالأصل متحقق في كل واحد من تلك الفروع مستصحب في جميعها على السواء، وما اعتور ذلك الأصل من التباين، وتفرق اللهجة، إنما عَرَضَ بسبب تفرق المنتحلين له وطول انقطاع بينهم مع ما يضاف

1- أمين نخلة : المصدر نفسه، ص 40.

2- التونجي محمد : الجوانب ودورها في المعجمية الحديثة، ص 151 في «المعجمية العربية المعاصرة»، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 . [الجوانب جريدة أصدرها الشدياق ما بين 1861 و 1884].

3- أمين نخلة : المصدر نفسه، ص 42 - 43 .

إلى ذلك من شؤون وتعاقب الأحقاب. وما زالت اللغة دائمة التغير معرضة للزيادة والنقصان شأن الأرض وما عليها»[1].

وكتب في هذا الاتجاه أحمد فارس الشدياق وجبر ضومط (1859 - 1930) وإبراهيم اليازجي ومارون غصن (1881 - 1940). وتعززت هذه المباحث بازدهار المنهج اللغوي المقارن في أوربا مع «بوب» ومن جاء بعده أمثال شليشر وشلايكل وماكس مولر وإرنست رينان وغيرهم. «وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء في سوريا، أصابَ علوم اللغة شيء منه. فتولد «علم الفلسفة اللغوية»، وظهر أول كتاب فيه سنة 1886 في بيروت لمؤلف هذا الكتاب (أي جورجي زيدان) وهو بحث تحليلي في أصل اللغة وكيف تكونت بالتدريج. وظهر له بعد ذلك كتاب تاريخ اللغة العربية سنة 1904 ومداره النظر في اللغة العربية باعتبارها كائنا حيا قابلا للارتقاء بالنمو والدثور. وألف في الفلسفة اللغوية أيضا جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في المدرسة الكلية الأمريكية، فظهر له كتاب «الخواطر في اشتقاق اللغة وصيغتها بَحَثَ فيه بحثا فلسفيا»[2].

كما كتب في هذا الاتجاه أيضا عبد الله العلايلي (1914 - 1996) «في مقدمة لدراسة اللغة العربية» وأحمد رضا العاملي. وَأكد هؤلاء جميعا على مبدإ الثنائية اللغوية أساسا لبنية الكلمة العربية. «فالألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يُرَدُّ معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية»[3].

واهتم بعض اللبنانيين كذلك بقضايا لغوية عُدَّتْ جديدة بالنسبة لمحيط الثقافة اللغوية العربية آنذاك. يتعلق الأمر بالبحث في اللغة الأم للساميات واللغات الأصلية كما هو الشأن عند ابراهيم اليازجي وجرجي زيدان[4] (1861 - 1914).

3.3.1- البحث اللغوي التعليمي

استهدف أصحابه تأليف كتب تُقَدِّمُ اللغةَ العربية ونحوَها للمتعلم بشكل مبسط،

1- إبراهيم اليازجي : «أصل اللغات السامية»، مجلة المقتطف، السنة السادسة 1881، الجزآن 7/6 من ص 324 إلى 329 ومن ص 330 إلى 394. وقد قدم رياض القاسم نصوصاً مختارة للشيخ إبراهيم اليازجي، وعنها نقلنا انظر : اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، ج 1 ص 287 وما بعدها.

2- جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، ص 230، دار الهلال، القاهرة (بعناية د. شوقي ضيف) د.ت.

3- جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 72، دار الجيل، بيروت (سحب 1982) [الطبعة الأولى 1886]. ولمزيد من التفاصيل ينظر في المبحث المتعلق بأبحاث زيدان في الفصل الثالث.

4- رياض قاسم. المصدر المذكور، ص : 14 مؤسسة نوفل بيروت 1982.

محاولين إعادة ترتيب أبواب النحو العربي اختصاراً وشرحاً بأمثلة تيسر القواعد وتجعلها قريبة من أذهان المتعلمين. و عملوا أيضاً على « تسهيل كتب المتن وجعل المفردات والتراكيب مجارية للعصر (...) وأن يجهدوا في تسهيل كتب القواعد وجعلها كالذي جاءهم من كتب الإفرنج هينة المتناول»[1].

وحدد الشيخ إبراهيم اليازجي مهمة هذا الضرب من الكتابة اللغوية، فبَيَّن أن ما ينبغي أن يهتم به مؤلفو كتب القواعد «الاختيار من كل قاعدة أصح الأقوال وأمثلها لتكون مرجعاً لطلاب هذه الصناعة وتنبذ بقية الأقوال الساقطة والمذاهب المرجوحة. ويكون في ضمن ذلك إهمال كل ما يتعلق بالقراءات المختلفة واللغات الشاذة والضرورات الشعرية، مما يترك الكلام عليه للتصانيف المختصة به، بحيث **يتلخص النحو في الوجوه التي عليها الاستعمال، ويكون ذلك ذريعة تتوحد بها قواعد اللغة كما توحدت اللغة بالقرآن.** ومثل ذلك يفعل بكُتُبِ المتن، فتنبذ منها اللغات المتروكة والألفاظ الوحشية من كل ما لا يرى في الكتب المتداولة لهذا العهد، وما لا يجوز للفصيح استعماله (...) وترتب الألفاظ على وجه سهل المراجعة لا يكلف عناء ولا بحثاً طويلاً، بحيث **تكون كتب اللغة عندنا على مثل ما هي عليه في اللغات الأوربية**».

4.3.1- النقد اللغوي أو التصحيح اللغوي

ظهر هذا الضرب من الكتابة اللغوية في لبنان نتيجة ما شاب اللغة العربية الفصحى من «ضعف» على يد بعض الكتاب وحملة الأقلام، إذ ضعفت الأساليب اللغوية، فجاءت العبارات ركيكة الصياغة طافحة بالأخطاء اللغوية والنحوية، «لا نكاد نتصفح مقالة من جريدة أو مجلة أو فصلاً من كتاب عربي أو معرب، إلا ونجد فيه مواضع حرية بالتنبيه (...) هناك ألفاظ وصيغ غريبة انفرد بها بعض كتابنا منها عن زيادة تأنق ومغالاة في طلب الإغراب فيخبطون في استعمال ألفاظ اللغة إلى ما يُخْرِجُها عن وضعها ويكسوها ثوباً من القلق والإبهام، ومنها عن قلة في المادة وجهل بمفردات اللغة ووجوه استعمالها فيأتي بها الكلام في منتهى الركاكة والسقم»[2].

وقد ارتفعت الأصوات تشجب هذه الأخطاء داعيةً إلى تصويبها بالعودة إلى الكلام الفصيح لغة وتركيبا. وأبرز من يمثل الكتابة في النقد اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي في كتابه «لغة الجرائد». كان هدفه في هذا المؤلف «المحافظة على اللغة وصيانة أقلامهم

1- إبراهيم اليازجي، نقلا عن أمين نخلة، المصدر المذكور.

2- إبراهيم اليازجي : لغة الجرائد، ص 98 و ص 95، دار مارون عبود، بيروت (1901/1984).

ـ يقصد الكُتّابَ ـ من مثل هذه الشوائب مع كفايتهم مؤونة البحث والتنقيب في كتب اللغة على ما هو معلوم من وعورة مسلكها وشكاسة ترتيبها، مما كان ولاشك هو السبب في تجافيهم عن مراجعتها واستثبات صحة تلك الألفاظ منها»[1]. وتوسع بعض اللغويين اللبنانيين في تتبعهم الأخطاء اللغوية وتصحيحها، فلم يترددوا في نقد الشعراء العرب قديما وحديثا.

خطأ اليازجي في «لغة الجرائد» شعراء مثل الحارث بن حلزة (ص45) وعدي بن زيد العبادي (ص74) وابن نباته المصري (ص78) وأبي تمام الطائي (ص79) وغيرهم. كما شمل نقدهم كبار اللغويين والمعجميين العرب، إذ ألف أحمد فارس الشدياق كتابه «الجاسوس على القاموس (1881) « لما رأى في تعاريف القاموس للإمام القاضي مجد الدين الفيروز آبادي قصوراً وإبهاماً وإيجازاً وإيهاماً[2]. ونشر الشيخ إبراهيم اليازجي «بين 1900 و 1906 رسالة أغلاط العرب القدماء ونقد لسان العرب وأغلاط المولدين».

غير أن هذا الضرب من الكتابة سرعان ما أخذ اتجاها آخر حين تحول إلى مشاجرات كلامية بين اللغويين المحدثين أنفسهم كما حصل بين الشدياق واليازجي، وبين اليازجي وشكيب أرسلان. ثم اتسع النقاش ليشمل آخرين. وقد آلت هذه النقود إلى نوع من المماحكات التي كشفت «عن تهافت هؤلاء في معيارية مجذبة لا جدوى ولا رجاء منها، وامتزج النقد الموضوعي بالنقد الشخصي وانغلاق النقود على حدود المحاججة واللجاج»[3].

1- إبراهيم اليازجي : المصدر نفسه، ص 30.
2- أحمد فارس الشدياق : الجاسوس على القاموس، ص 2. مطبعة الجوائب، القسطنطينة، 1881.
3- قاسم رياض : المصدر المذكور، ج 2، ص 521، ومن الكتابات اللغوية اللبنانية التي تعكس صراحة الطابع العقائدي والسياسي نذكر :
ـ جورج الكفوري : ـ عوامل الضعف في اللغة العربية.
ـ العربية بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بيروت 1948.
ـ الخوري مارون غصن : حياة اللغة موتها : اللغة العامية.
تحسين اللغة العربية بإدخال علامات الوقف عليها، ضمن كتابه : «درس ومطالعة» الصادر ببيروت سنة 1924.
ـ أنيس فريحة : نحو عربية ميسرة، بيروت 1955.
محاضرات في اللهجات وأصول دراستها، القاهرة 1955.
ـ سعيد عقل : في مقالاته ومحاضراته العديدة.
وقد استقينا هذه المعلومات التاريخية ورتبناها وفق موضوعنا عن :
ـ عمر فروخ ـ القومية الفصحى، ص 98، 150. دار العلم للملايين 1961.
ـ قاسم رياض : المصدر المذكور. ج 2 ص 377 - 445.

5.3.1- اهتمامات أخرى

قدم لغويو لبنان كتابات لغوية أخرى لا تندرج مباشرة في اهتمام هذا البحث. يتعلق الأمر بعلاقة العربية الفصحى بالعاميات وإصلاح الخط والكتابة العربية وتيسير إملائها والدعوة إلى كتابة العربية بالخط اللاتيني، والدعوة إلى كتابة العامية بالحرف اللاتيني وما إلى ذلك ... وهي قضايا لغوية ترتبط أساسا بالواقع الفكري والاجتماعي والسياسي اللبناني. إن اللغة العربية في لبنان لم تعد مسألة لغة فحسب، بل تعدت ذلك لتصبح مسألة قومية، وارتبطت كلياً بالصراع الدائر حول هوية لبنان السياسية.

6.3.1- استنتاجات أولية

تلك إذن أهم الاهتمامات التي انشغل بها اللغويون في لبنان الحديث كما تعكسها كتابات بطرس البستاني (1819 - 1883) والشدياق واليازجيين ناصف وإبراهيم (1800 - 1871) وكمال وجبر ضومط وجورجي زيدان وآل عطية شاهين ويوسف الأسير (1815 - 1889) والشيخ إبراهيم الأحدب ورشيد الدحاح (1813 - 1889) وسعيد الشرتوني (1849 - 1912) وعبد الله العلايلي (1914 - 1996) وغيرهم.

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نفرد لكل واحد من هذه الأسماء دراسة تبين قيمة أعمالها ودورها التاريخي والاجتماعي في نشأة البحث اللغوي العربي الحديث وتطوره. وليس معنى هذا أنهم قادوا الدرس اللغوي العربي إلى مجالات جديدة لم تكن معروفة من قبل في الدراسات العربية. إن هذا النوع من التجديد لم يحدث إلا نادرا لاسيما في أبحاث زيدان والعلايلي أساساً. وليس معنى هذا أيضا أنهم جاءوا بتحليلات جديدة للعربية في جميع مستوياتها أو في بعض منها. إن أعمال هؤلاء لم تخرج عمَّا هو مألوف إلا نادرا مما جعلها تظل محصورة «في حيز الكلمة لا الجملة (...). أما الجملة فقد نالت قسطاً ضئيلاً من البحوث إذ اكتفوا بالجانب النحوي في إطار ضيق لم يتعد وضع القواعد في شروحات جديدة واختصار بعض المتون، ثم العودة إلى شرح ما اختصروه مع حواشي تتناول إعراب الشواهد والتعليق اللغوي عليها. وهو ما وضع المباحث النحوية في هامش الدراسة وجعلها دون مباحث المعجم أو التعريب»[1].

بيد أن أهمية هؤلاء وكتاباتهم تكمن في المكانة الرفيعة التي أصبح البحث اللغوي يحضى بها في الثقافة العربية الحديثة. لقد أكدت كتاباتهم على أهمية الفكر اللساني

1- قاسم رياض : المصدر المذكور، ص 13.

عامة واعتباره مفتاحاً لمجالات معرفية أخرى، وعلى ضرورة التسلح بالمعرفة اللغوية الحديثة الوافدة من أوربا التي أضحت تشكل نموذجا أشار إليه أكثر من باحث لغوي لبناني.

يبدو جليا أن معظم اللغويين اللبنانيين نهلوا من الثقافة اللغوية الغربية نتيجة تمكنهم من لغات أجنبية سمحت لهم بالاطلاع على الفكر اللغوي الحديث في أوربا ولو في صورة جزئية ومتفرقة، وشكل ذلك مصدراً هاماً أضافوه لمعرفتهم بالثقافة اللغوية العربية القديمة، فجاءت كتاباتهم حاملة روحاً جديدة إن لم تكن دائماً في مستوى المضمون، فإنها على الأقل اتسمت بنوع من الحرية الفكرية في التعامل مع قضايا العربية بروح غير مقلدة ولا تابعة للنموذج القديم.

وكان الشدياق «بحكم إقامته الطويلة في أوربا أكثر رجال النهضة اطلاعاً على الحضارة الغربية وأكثرهم دراية بالثقافة الأوربية»[1]. ويقول باحث آخر : «فالفكرة المعجمية من المسائل اللغوية الهامة التي استحوذت على الشدياق وفكره وبخاصة **بعد أن اطلع على المعاجم الغربية وعانى من مشكلات الترجمة**»[2]. وتتردد في كتابات اللبنانيين العبارات التي تشير إلى واقع اللغات الأجنبية من حيث سهولة معجمها وكتبها النحوية «بحيث تكون اللغة عندنا على مثل ما هي عليه في اللغات الأوروبية»[3]. ويشير الشدياق إلى نفس المعطى فيما يتعلق بالمعجم. «إن ألسنة الأجانب زاحمته ـ أي اللسان العربي ـ في هذا العصر (...) **لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل والوصول إليها أعجل**»[4].

وَقد مر بنا ما قاله جورجي زيدان «بعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء في سوريا أصاب علوم اللغة شيء منه ...»[5]. ويقصد زيدان كتاب داروين «**أصل الأنواع**» الصادر سنة 1859 «الذي أذاع أفكاره الطبيب اللبناني شلبي شميل ابتداء من 1884 في كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء»»[6].

1- يوسف مسلم أبو العدوس : جهود أحمد فارس الشدياق في تطوير المعجم العربي الحديث : في أعمال ندوة «في المعجمية العربية المعاصرة»، ص 60. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

2- محمد علي الزركان : عناصر المعجم الحديث عند الشدياق. في المعجمية العربية المعاصرة، ص 123، انظر أيضاً : محمد علي الزركان : الجوانب اللغوية عند أحمد فارس الشدياق. دار الفكر، دمشق، 1988.

3- قولة لإبراهيم اليازجي نقلا عن أمين نخلة : المصدر المذكور، ص 29.

4- أحمد فارس الشدياق : الجاسوس، ص 3.

5- جورجي زيدان : تاريخ اللغة العربية ، ج 4، ص 230، مطبعة دار الهلال، القاهرة، د.ت.

6- حنا نمر : الداروينية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1982/2.

سبقت الإشارة إلى أن المباحث اللغوية التي أصابها التجديد على يد اللبنانيين هي مباحث المعجم. لقد بينت الكتابة المعجمية اللبنانية أن الثقافة العربية أحوج ما تكون إلى معجم نموذجي قادر على تجاوز نقائص المعجم العربي القديم وعيوبه، يوفر للقارئ المادة اللغوية الحديثة التي يحتاجها دون عناء البحث.

وساهم اللبنانيون نظريا وتطبيقاً في الرفع من مستوى المعجم العربي فاختصروا ونَقَّحوا أمهات المعاجم العربية، وأضافوا إليها مفردات حديثة، فجاءت معاجمهم أكثر يسرا في الاستعمال وفائدة في المادة، وأكثر قدرة على استيعاب تطور العربية. وتمكن بعضهم من الوصول « إلى تصنيف متكامل مادة ومنهجا في معجمين كبيرين أولهما (متن اللغة) للشيخ أحمد رضا (1958)، والثاني (المعجم للشيخ عبد الله العلايلي) فكان أن بلغ التيسير حد الدقة المتناهية في الأول والتوسع التطوري المتعمق في الثاني »[1].

إلا أن هذا التجديد الذي جاء نتيجة انفتاح اللبنانيين على المصادر اللغوية الأجنبية التي قوَّت أسسهم النظرية، ووجهت البحث اللغوي لديهم، لم يكن عاما ولم يمنعهم من السقوط في معيارية مجدبة عكستها بعض كتاباتهم في النقد اللغوي.

دار النقد اللغوي أحيانا كثيرة حول مسائل تافهة شخصية أو عقائدية. ومن المسائل النقدية التافهة خلاف الشدياق واليازجي حول أيهما أصح «الفَطْحل أم الفَحْطل» ؟ كان الشدياق يقول «الفطحل» بينما كان الثاني يرى «الفحطل»، وهو دهر لم يخلق فيه الناس بعد أو هو زمن عهد نوح[2].

خلق هذا الصنف من الكتابة اللغوية جواً من الخصومات مليئاً بالعداوة والحقد بين اللغويين، فانحرفت المناقشة اللغوية عن موضوعها الأصل، لتتحول إلى تعقب مستمر لأخطاء الآخر للإيقاع والتشهير به بين العامة والخاصة. جاء ذلك بسبب المواقف المعيارية المتطرفة التي تبناها كثير من اللغويين اللبنانيين رغبة منهم في «حماية العربية» والمحافظة عليها من الفساد واللحن، وأحيانا أخرى لإظهار اطلاعهم الواسع على اللغة العربية وخباياها الدقيقة. ولم تكن التصويبات المقترحة من قبل هذا اللغوي أو ذاك تخضع لمنهاج واحد يحدد مقياس التصويب ويوضح معايير الخطأ، لذلك تضاربت

1- قاسم رياض : المصدر المذكور، ج 2، ص 523.

2- القصة الكاملة لهذه المسألة في قاسم رياض، المصدر المذكور، الجزء الأول، صص 258 - 259.

الآراء واختلفت حول التصحيح اللغوي، مما قاد في النهاية إلى مناقشات ومساجلات عقيمة غير موضوعية وغير مجدية بالنسبة للغة العربية في استعمالها الراهن. و«كثيرا ما أدت العوامل الشخصية أو البيئة الخارجة عن حقيقة اللغة إلى نزاع بين هذا الباحث أو ذاك»(1).

وقَلَّ من مردودية هذا النوع من النشاط اللغوي غياب التحديد المنهجي لطبيعة الخطأ اللغوي. ولم يأخذ كثير من لغويي هذه الحقبة في لبنان ـ أو مصر أو سوريا أو العراق ـ طبيعة التطور والظروف الجديدة التي أصبحت تحياها العربية وهي على عتبة عهد جديد. ووصلت بهم غيرتهم الشديدة على اللغة العربية في صورتها النموذجية القديمة، أنهم لم يفرقوا بين الحرص على نقاء اللغة وسلامتها وبين طبيعة التطور المحتوم الذي يصيب كل اللغات ومنها اللغة العربية نتيجة السيرورة التاريخية الطويلة التي قطعتها. وَ لم تسلم مواقفهم من تناقض واضطراب، حيث بلغ بعضهم درجة التطرف في رفض لغات فصيحة عالية نصت المعجمات على فصاحتها(2).

لقد حاول اللغويون اللبنانيون بجد واجتهاد توجيه الدرس اللغوي نحو قضايا العربية الراهنة في مستوى المعجم والنحو نظراً لأن اليقظة الفكرية والسياسية والاجتماعية تمر حتما عبر لغة حية ومعاصرة تستجيب لمتطلبات الإنسان العربي الحديث(3).

4.1- رفاعة الطهطاوي لغوياً

رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) من بين النهضويين الأوائل الذين اهتموا باللغة العربية ونهضوا لدراستها وتجديد أمورها لإزالة ما أصابها من جمود في المفردات وتعقيد في الأساليب والتراكيب.

كان لرحلة الطهطاوي إلى فرنسا بصفته «واعظاً للبعثة الأولى من الشبان الذين

1- جعفر القزاز : الدراسات اللغوية في العراق حتى منتصف القرن XX، ص 136، دار الرشيد، بغداد 1981.

2- المصدر نفسه، ص 139. وحول حركة النقد اللغوي في العالم العربي حديثا ينظر في : محمد ضاري : حركة التصويت اللغوي في العصر الحديث. دار الرشيد، بغداد 1982.

3- قاسم رياض : المصدر المذكور، ص 12.

أرسلهم محمد علي [1769-1849] إلى باريس»[1] أكبر الأثر في اهتمامه باللغة العربية، والعمل على إحيائها وتنميتها. حاول الطهطاوي في مذكراته «تخليص الإبريز في تلخيص باريس» أن ينقل للقارئ العربي كل ما شاهده أثناء رحلته إلى فرنسا وما رآه من مظاهر الحياة اليومية الفرنسية. يقول : « ننبه على ما يقع في هذه السفرة وعلى ما أراه، وما أصادفه من الأمور والأشياء العجيبة، وأن أقيده ليكون نافعا»[2].

تجسد أفكار الطهطاوي اللغوية أول مظهر من مظاهر التلاقح بين الثقافتين العربية والفرنسية. ويقدم الطهطاوي في كتابيه «التلخيص والتحفة المكتبة»[3] فكرة عامة عما وصل إليه البحث اللغوي في فرنسا، سواء بالنسبة لدراسة اللغة الفرنسية، أم بالنسبة للغة العربية على يد المستشرقين أمثال دي ساسي ((De Sacy) 1758 - 1838) وكوزان بُرسفال Cousin de Perceval. وسنحاول الكشف عن بعض مظاهر التجديد التي تعكسها أعمال الطهطاوي اللغوية التي كان لها الأثر الواضح في الثقافة اللغوية العربية الحديثة.

يمكن الحديث عن جهود الطهطاوي اللغوية من زاويتين :

أولا : بالقياس للفكر اللغوي العربي السائد قبل الطهطاوي وبعده بقليل.

ثانياً : بالقياس للبحث اللغوي السائد آنذاك في أوربا خلال الأربعين سنة الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي.

بالنسبة للفكر اللغوي العربي السائد، نَحْصُر مساهمة الطهطاوي في القضايا اللغوية التالية :

- **التعريب والمصطلح**
- **تبسيط النحو العربي**
- **فهم طبيعة اللغة**

1- أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص 142. تحقيق عبد الله الطباع، دار ابن زيدون، بيروت 1985 ط 1926/1.

2- رفاعة الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريس 1834، ص 141. تحقيق فهمي حجازي، دار الفكر العربي، القاهرة 1974.

3- رفاعة الطهطاوي : التحفة المكتبية في تقريب العربية، (1869) تحقيق البدراوي زهران، دار المعارف القاهرة 1983 [1869].

1.4.1- التعريب والمصطلح

اهتم الطهطاوي بنقل بعض الأعمال الأدبية والعلمية الفرنسية إلى اللغة العربية. غير أن لغته الأم لم تسعفه دائما للقيام بهذه المهمة الصعبة في ظروف كانت فيها اللغة العربية في أعلى درجات الضعف عبر تاريخها الطويل. حاول الطهطاوي أن يكيف عربية عصره لكي تفي بمقتضيات الأمور الجديدة التي كان يود التعبير عنها. «فكان يضع ألفاظا عربية أو يشتقها لأداء الألفاظ الجديدة، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعريب كما كان يصنع مفكرو الإسلام في القرن الثاني والثالث الهجريين»[1]. ونجد في «التخليص» مجموعة كبيرة من ألفاظ ـ المدنية الغربية الحديثة ـ التي دخلت اللغة العربية لأول مرة على يد رفاعة الطهطاوي. وقد تعامل الطهطاوي مع الألفاظ المستحدثة «بطريقة عفوية»، فاجتهد في البحث عن المقابل العربي حيثما أسعفته اللغة العربية. واكتفى في حالات كثيرة بتعريبها أي ـ بإدخال الألفاظ الأعجمية في وضعها الأصلي إلى اللغة العربية.

ويحوي «التخليص» ألفاظا مستحدثة من قبل الطهطاوي توفق فيها إلى حد كبير من ذلك مثلاً البواب لـ : concierge جمعية : Société تنظيم علمي، المنتخبون، العمارات، السلطة...[2] الخ.

وَنذكر من المصطلحات اللغوية التي اقترحها الطهطاوي : «لغات مهجورة»، «لغات مستعملة»، «فعل الملك» (Avoir) «فعل الكينونة» : (Etre) «الفعل المساعد» : (Verbe auxiliaire) «مكيف الفعل» : (Modifieur du verbe).

ومما اجتهد الطهطاوي في ترجمته : مكتب (مدرسة = Ecole) صبيان القهوة، متروكون لوقت الحاجة (الجنود الاحتياطيون) طب البهائم (البيطرة)، أحد أرباب (عضو). أكدمة (أكاديمية)، الخ...

ومن الألفاظ التي نقلها مباشرة إلى العربية : البندول Pendule، البلوار Boulevard جرنال Journal بنسيون Pension كوليج Collège أوبره كوميك Opéra-comique التياتر Théâtre السبكتاكل Spectacle.

1- إبراهيم مذكور. مجمع اللغة في ثلاثين سنة، ص : 13ـ المطبعة الأميرية، القاهرة 1964.

2- انظر المقابلات اللغوية التي وضعها فهمي حجازي في نهاية تحقيقه تخليص الابريز للطهطاوي، القاهرة 1974.

كان الطهطاوي واعيا بما يعترض عمله في الترجمة من صعوبات، لعدم وجود اللفظ العربي المناسب لكثير من الأشياء التي تحدث عنها. « لما كانت هذه الألفاظ في الأغلب أعجمية فلم ترتب إلى الآن في كتب اللغة العربية، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها، عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب، حتى إنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية. ولو صنع المترجمون نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ... لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء، ونظمها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب »[1].

وقدعُدَّ رفاعة الطهطاوي أول مؤلف حديث ختم مُؤلّفه «بفهرس لبعض الألفاظ جامعاً وشارحاً لها، وذلك نهج جديد في وضع قوائم المصطلحات وحصرها »[2].

2.4.1- تبسيط النحو العربي

تجمع كل الدراسات التي تناولت أعمال الطهطاوي أنه بسط النحو العربي للناشئة العربية بشكل لم يكن معروفا من قبل. إنه « أول من حاول تبسيط النحو، ووضع في ذلك رسالة استعان فيها بالجداول التعليمية، فاستن سُنَّةَ النحو الواضح التي لا نزال نعالجها حتى اليوم »[3]. يتعلق الأمر بكتاب رفاعة الطهطاوي «**التحفة المكتبية في تقريب العربية**» الذي يُعَدُّ «أول كتاب خرج على كتب عصره التي ما كانت إلا متونا ومنظومات وشروحا وتقريرات »[4].

كان الطهطاوي ـ كعادته ـ واعياً بتقديمه أول محاولة تجديدية في النحو استهدفت بسط قواعد اللغة العربية بشكل ميسر، تسهيلاً لتلقين النحو العربي. يصف الطهطاوي

1- نقلا عن فرحات الدريسي : منزلة الحركة المعجمية في القرن التاسع عشر، ص 241. ضمن أعمال في المعجمية العربية المعاصرة، دار الغرب الإسلامي. تونس 1987 وكتاب «قلائد المفاخر : ترجمة قام بها الطهطاوي [1249 هـ] لكتاب :

G. Depping : Aperçu historique sur les mœurs et les coutumes des nations. Paris, 1833.

2- إبراهيم مذكور : المصدر المذكور.

3- إبراهيم مذكور : نفسه، ص 13.

4- محمود فهمي حجازي : مقدمة التلخيص، ص 31.

صنيعه في التحفة بأنه «رسالة في النحو سهلة المأخذ للدراسة في المدارس الخصوصية والأولية تفي بالمرام لجزالة اللفظ وحسن الانسجام، ولاسيما وأنها مصوغة على أسلوب جديد يقرب البعيد للمزيد، فلهذا سميتها التحفة، فهي جديرة بأن تعد من المحاسن التجديدية»(1).

وتشير الدراسات التي تناولت قضية «إصلاح النحو العربي» من المنظور التاريخي إلى أن الطهطاوي «يمثل في مجال تبسيط كتب النحو قفزة واسعة إلى الإمام إذا قيس بما كان متداولاً في ذلك الوقت من كتب هذا الفن، بل إنه ليفوق العديد من الكتب التي أُلِّفَت في موضوعه بعده بعشرات السنين»(2).

وإذا كان لجوء الطهطاوي للجداول الإيضاحية واستعانته بها أمراً لافتاً للنظر في تاريخ النحو العربي الطويل، فإن عناصر التجديد المنهجي في التحفة تتجلى أساساً في مستوى كيفية تناول الطهطاوي المادة النحوية وعرضها. ويمكن حصر ذلك فيما يلي:

- « استخدام لغة سهلة، مباشرة ومتحررة إلى حد كبير من القوالب المألوفة في كتب النحو التقليدية للتعبير عن الظواهر والقواعد النحوية».

- «تحاشي الخلافات النحوية وتعدد الآراء وطرق التعليل في سَوْقِ القواعد، مع أن ذلك كان شائعاً في الكتب المتداولة حتى ما كان منها موضوعاً للمبتدئين.

- «استخدام حروف كبيرة الحجم لكتابة المصطلحات النحوية وعناوين الأبواب وهي وسيلة هامة من وسائل التوضيح وجذب انتباه الدارس إلى الأمور الهامة.

- «تذييل الكتاب بخاتمة في الخط والإملاء وحسن القراءة وهي أمور لم يكن لها مكان في الكتب التقليدية ولم يسبق أن عنيت بها كتب النحو من قبل»(3).

إن ما يشير إليه الباحثون من سبق الطهطاوي إلى التجديد في البحث اللغوي التعليمي حَصَل ـ ولا شك ـ نتيجة ما اطلع عليه المؤلف من أعمال اللغويين الفرنسيين. إن النفسَ الجديد في فكر **الطهطاوي** اللغوي والنحوي لم يكن وليد بيئة الثقافة العربية لتلك الفترة وإن كانت الحاجة إليه ماسة. إن «استعانة الطهطاوي لأول مرة في تاريخ كتب النحو

1- رفاعة الطهطاوي : التحفة المكتبية، ص 93 - 94، تحقيق البدراوي زهران، القاهرة، دار المعارف 1983.
2- مبروك سعيد : في إصلاح النحو العربي، دراسة نقدية، ص 60، دار القلم، الكويت 1985.
3- مبروك سعيد : المرجع نفسه، ص 60.

العربي بالجداول الإيضاحية (...) تعكس معرفته بكتاب **دي ساسي** وبجهود غيره من المؤلفين الفرنسيين في النحو»[1]. لقد قام **الطهطاوي** بمحاولة فريدة في تاريخ النحو العربي التعليمي نتيجة احتكاكه بالأفكار اللغوية الأجنبية. «فليس هناك ما يدعو لأن نقول إن فكرة الجداول موجودة في التراث عند بعض علمائنا، وأنه أفادها منهم، وإلا فَلِمَ لم يطبقها أحد غير **رفاعة** من السابقين عليه، ولم يطبقها **رفاعة** نفسه قبل رحلته إلى باريس؟»[2].

بيد أن دارسي **الطهطاوي** لم يحددوا بدقة المصادر اللغوية التي صدر عنها في بحث النحو واللغة في «التحفة» و «التخليص». يكتفي الدارسون بالإشارة إلى دور المستشرق **دي ساسي** وأثره في فكر **الطهطاوي** وهو ما سبقهم إليه **الطهطاوي** نفسه عندما تكلم كثيرا عن **دي ساسي** في «التلخيص».

لقد تحدث **الطهطاوي** بكثير من الإعجاب والتقدير العلميين عن شيخ المستشرقين **سيلفستر دي ساسي** (1758 - 1838). «فمعرفته خصوصا في العربية مشهورة. وقد رأيت له بعض كتب فيها توقفات عظيمة وإيرادات جليلة ومناقضات قوية، وله اطلاع واسع على الكتب العلمية في سائر اللغات»[3]. ويذهب به الإعجاب بمعرفة **دي ساسي** الواسعة للغات وإتقانه لها إلى حد تشبيهه بالفيلسوف **أبي نصر الفارابي**.

ومعروف لدى علماء تاريخ الفكر اللغوي الحديث في أوربا أن **دي ساسي** (1758-1838) كان فعلاً كما وصفه **الطهطاوي** وأنه عَلَّمَ **فرانزبوب** Franz Bopp (1791 - 1869) مؤسس النحو المقارن[4]. كان **دي ساسي** قد ألف كتابا في النحو العربي أسماه «التحفة السنية في علم العربية» وهو كتاب «ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا»[5]. ومما لاشك فيه أن أثر **دي ساسي** واضح في فكر **الطهطاوي** النحوي فيما يتعلق بالمادة النحوية وكيفية تقديمها. إن اختيار **الطهطاوي** لعنوان كتابه «التحفة» ليس من قبيل الصدفة. إن «صياغة **رفاعة** لعنوان كتابه في تركيب مواز لعنوان كتاب **دي ساسي** وإيثاره لفظ «التحفة» في مطلع العنوان كما فعل **دي ساسي**

1- محمود فهمي حجازي : المصدر المذكور، ص 125.

2- البدراوي زهران : في مقدمة «التحفة»، ص 26، هامش 3. دار المعارف، القاهرة 1983.

3- رفاعة الطهطاوي : التخليص، ص 221.

4- G. Mounin : Histoire de la linguistique, p. 174, PUF, 1974/1967.

5- رفاعة الطهطاوي : التخليص، ص 221.

أيضا، يرشح احتمال وجود التأثر [1]. والحقيقة أن الأمر تعدى الجانب الشكلي المتمثل في صياغة العنوان. إن التشابه بينهما لايقتصر على العنوان، بل يشمل أيضا الطريقة التي عالج بها الرجلان مسائل النحو من خلال اعتمادهما ما تحتاجه العملية التربوية من جداول توضيحية تُيَسِّرُ الفهم وتُقَرِّبُ المادة النحوية من أذهان المتعلمين.

إن اهتمام الطهطاوي «بالنحو العربي» لم يكن عفويا ولا تلقائيا. إنه صنيع يجسد حرص **الطهطاوي** على التجديد في النحو التعليمي انطلاقا من الاهتمامات التي كانت تشغل بال اللغويين في فرنسا خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر المعروفين باسم الايديولوجيين الذين كان من اهتماماتهم الأولى مكانة النحو وأهميته في «التربية المدرسية» التي شكلت إحدى الأطروحات الأساس التي دافعوا عنها بكل قوة» [2].

مثل ذلك فعل **الطهطاوي** عندما عاد من فرنسا متأثراً **بدي ساسي** أحد أبرز الإيديولوجيين. ولقد أكد هؤلاء في بداية القرن التاسع عشر بشكل واضح على علاقة البحث الفلسفي في اللغة والنحو بالقضايا التربوية كما هو الأمر بالنسبة لطيرو F. THUROT. (1832 + 1768) أحد كبار لغويي وفلاسفة عصره [3].

3.4.1- في طبيعة اللغة

إذا كان كتاب «التحفة» محاولة رائدة في تبسيط النحو العربي، فإن كتاب **الطهطاوي** «تخليص الابريز» يشكل هو الآخر نقطة تحول جديدة في تاريخ الفكر اللغوي العربي الحديث. يعكس «التخليص» جملة من الأفكار اللغوية «الجديدة» التي استقاها **الطهطاوي** من الدرس اللغوي السائد آنذاك في فرنسا. وسنعرض لجملة من الأفكار اللغوية كما فهمها الهطاوي والمتعلقة أساساً بطبيعة اللغة كظاهرة عامة وباللسان الفرنسي.

يقدم **الطهطاوي** تعريفاً عاما للغة. فهي «من حيث الألفاظ المخصوصة الدالة على المعاني وطريقها الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم. وهي قسمان : لغات

1- مبروك سعيد : في إصلاح النحو العربي، ص 61.

2- C. Désirant et T. Hordé : Introduction aux idéologues et les sciences du langage ; P. 12 in H.E.L. tome 4, fasc. 1, P.U. Lille, 1982.

3- F. Thurot : Tableau des progrès de la science grammaticale (introduction et noté par A. Joly. Collection Ducros, Bordeaux, 1970/1796.

مستعملة ولغات مهجورة. فالأول ما يتكلم به الآن كلغة العرب والفرس والأتراك والهند و الفرنسيس والطليانية والإنكليز والإسبانيول والنيمسا والموسقو، والثاني ما انقرض أهله، واندثر أربابه ولم يبق إلا في الكتب مثل اللغة القبطية واللاتينية واليونانية القديمة المسماة بالإغريقية»[1].

إذا كان حد اللغة غير جديد في الثقافة العربية ـ حد اللغة عند ابن **جني** في الخصائص معروف ومتداول[2]، فإن تعريف **الطهطاوي** يشير بوضوح إلى وجود أنواع كثيرة من اللغات. فهو يشمل اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة. ويميز التعريف بين اللغة من حيث هي ـ أي اللغة «الطبيعية»[3] وغيرها من أنظمة التواصل كالتعبير بالإشارة أو بغيرها. كما يشير تعريفه السابق إلى تقسيم أولي ما يزال الدرس اللساني المعاصر يأخذ به هو التمييز بين اللغات المستعملة (الحية) واللغات المهجورة (الميتة).

وحينما يتحدث **الطهطاوي** عن اللغة ينتبه إلى الاختلاف الحاصل بين مستوى اللغة المنطوق ومستواها المكتوب عند الفرد المتكلم. « فكل إنسان يعبر عن مقصوده، إما بالكلام أو بالكتابة، فكلامه يسمى عبارة ومنطقاً وتعبيره عن مقصوده بالكتابة سمي نقشاً ومسطرة وقلماً . فقد تكون قلم الإنسان أفصح من عبارته، فإنه قد يكون الإنسان ألكن ويكون قلمه فصيحا»[3]. وفي نفس السياق، ميز **الطهطاوي** بين مستوى اللغة الدارجة و مستوى اللغة الأدبية. «إن الكاتب إما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر. وعلى كل، فإما أن يكون كلامه أو تأليفه **باللغة المستعملة في المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة**»[4].

ويقف **الطهطاوي** أيضا على حقيقة علمية ما تزال قائمة إلى اليوم، هي كون كل لغة إنسانية لابد أن تتوافر على «نحو» يحدد بالضبط كيفية استعمال قواعدها. «إن كل لغة من اللغات لابد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة. وتسمى هذه القواعد باللغة الطاليانية «أغرماتيقا» وباللغة الفرنساوية «أغرمير». ومعناها تركيب الكلام، يعني علم

1- رفاعة الطهطاوي : المصدر نفسه، ص 373. [وقد وردت أسماء اللغات هكذا في النص الأصلي].
2- ابن جني : الخصائص، ج 1، ص 33. تحقيق محمد علي النجار. دار الهدى ـ بيروت.
3- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 375.
4- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 375.

ضبط اللغة بنحوها. فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هي، وهو مرادنا هنا، فهو علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال»[1].

و كان **الطهطاوي** يدرك قيمة النحو في الثقافة العربية واعتزاز العرب به، إلا أن احتكاكه باللغة الفرنسية وقواعدها دفعه إلى القول بأن قواعد النحو ليست خاصة بالعربية، إذ «سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها (...) وليست اللغة العربية هي المقصورة على ذلك»[2].

وخلافا أيضا لما يعتقده كثير من اللغويين العرب القدماء والمحدثين من كون اللغة العربية تنفرد بين لغات العالم بصفات بلاغية وبيانية لا نظير لها في باقي اللغات. يؤكد **الطهطاوي** «أن علم البلاغة ليس من خواص العربية، **قد يكون في أي لغة كانت من اللغات،** فإنه يعبر عن هذا العلم في اللغات الإفرنجية بعلم الريتوريقي»[3]. وتتوافر في كل لغة مجموع التقنيات والأساليب التي تحقق لها بيانها وبلاغتها، وهي أساليب خاصة بها، بحيث إذا نقلت إلى لسان آخر فقدت قيمتها، إذ « يكون الشيء بليغاً في لغة، غير بليغ في أخرى أو قبيحا فيها»[4].

يعكس هذا الكلام عند **الطهطاوي** فهماً موضوعياً لاشتغال بنيات اللغات الطبيعية وتوفرها على الوسائل الخاصة بها لتحقيق التواصل والإفهام في أبلغ الصور. ومعروف أن كثيرا من اللغويين العرب القدامى والمحدثين يعتقد أن البيان لايكون إلا بالعربية[5].

وتحدث **الطهطاوي** في «التلخيص» أيضاً عن طبيعة اللسان الفرنسي وكيفية اشتغاله صرفاً وتركيبا وبلاغة في إطار نوع من المقارنة بالبنيات العربية. ولعلها أولى المحاولات الحديثة في مجال المقارنة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الطبيعية. إن أجزاء الكلام التي جرت العادة أن تُقسَّمَ في النحو العربي إلى اسم وفعل وحرف هي على غير هذا المنوال في نحو اللغة الفرنسية. «إنهم جعلوا أجزاء الكلمة عشرة، كل

1- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 373.
2- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 217.
3- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 382.
4- رفاعة الطهطاوي : نفسه، ص 382.
5- أحمد بن فارس الصاحبي، ص : 16. تحقيق السيد أحمد صقر، دار الحلبي، القاهرة 1977.

واحد منها قسم مستقل له علامة، وهي الاسم والضمير وحرف التعريف والنعت والمشترك وهو أسماء المفعول والفاعل والفعل والظرف، ويسمى عندهم مكيف الفعل وحروف الجر وحروف الربط وحروف النداء والتعجب ونحوه»[1].

وَيستحضر **الطهطاوي** تقسيم النحاة العرب الثلاثي لأجزاء الكلام وتأكيدهم القاطع على ذلك كقول الزجاجي : «وقد اعتبرنا ذلك في عدة لغات عرفناها سوى العربية فوجدناه كذلك لا ينفك كلامهم كلا من اسم وفعل وحرف ولا يكاد يوجد فيه معنى رابع ولا أكثر»[2]، ليشكك في قيمة تأكيد النحاة العرب. يقول **الطهطاوي** «ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة في سائر اللغات، وأن الحصر عقلي لعلة استقلالها بالمفهومية وعدمه دلالة ما استقل بالمفهومية وعدمها **فيه بعض شيء**»[3].

ولاحظ **الطهطاوي** أن للغة الفرنسية طريقة خاصة بها في تصريف الأفعال. فإذا أراد الإنسان أن يخبر بأنه أكل فإنه يقول : «أملك مأكولاً [J'ai mangé]، يعني لا يمكن تصريف «أكل» في بعض أحواله إلا مع فعل الملك أو التلبس، فكأنه يقول : تلبست بالأكل. وإذا أراد أن يقول : «خرجت» يقول : «أنا أكون مخرجا، يعني خرجت. وهكذا يسمى فعل [avoir] وفعل الكينونة [être] فعلين مساعدين، يعني أنهما يعينان على تصريف الأفعال ويتجردان عن معناها الأصلي»[4].

لا يهمنا مدى فهم **الطهطاوي** لصرف اللغة الفرنسية وتركيبها، فليست ملاحظاته سوى عبارة عن تأملات تلقائية توصل إليها من خلال مقارنة اللغة الفرنسية بلغته الأصلية أي العربية. وَالجدير بالإشارة أن **الطهطاوي** كان أحد الأوائل الذين عقدوا نوعاً من المقارنة ـ أو على الأصح قاموا بدراسة تقابلية بين اللغتين العربية والفرنسية.

ورغم الأفكار اللغوية الجديدة التي ذكرها **الطهطاوي** في «التخليص» عن اللغة الفرنسية وإعجابه بها، لم تخل رؤيته للغة العربية من ذاتية بسبب تكوينه الثقافي

1- التخليص، ص 374.

2- أبو القاسم الزجاجي : الايضاح في علل النحو، ص 45، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ص 1979/3.

3- التخليص، ص 373.

4- التخليص، ص 216.

والديني. إن اللغة العربية عنده تبقى أفضل اللغات وأسماها ولا تماثلها لغة أخرى. «نعم اللغة العربية أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأحلاها على السمع»[1]. وفي هذا القول ما يناقض ما سبق أن ذكره من أن جميع اللغات فصيحة وفيها بيان وبلاغة. وحينما ينتبه إلى بعض المبادئ اللغوية العامة كما حصل عندما لاحظ «أن اللسان الفرنسي لسان غير قار القواعد كتابة وقراءة»[2]، فهو لايوظف هذا المبدأ بالنسبة لما آلت إليه اللغة العربية على عهده، وكان بإمكانه أن يقدم لنا معطيات هائلة عن حال اللغة العربية وتطورها.

4.4.1- الطهطاوي والفكر اللغوي الغربي

تناول **الطهطاوي** في «التحفة» و «التخليص» جملة من القضايا المتعلقة باللغتين العربية والفرنسية بكيفية عامة، نكاد نقول عنها إنها مقاربة «تلقائية وعفوية»، حيث تغيب الإشارة إلى المنهج المعتمد في التحليل أو المقارنة. ولا غرو في ذلك، «إذ تفتح فكره [أي **الطهطاوي**] لأول مرة على لغة جديدة غريبة عليه ذات مفاهيم لغوية غير ما عرف ولا عهد له بمثل ما يرى فيها ويسمع، فصدر عنه سلوك تلقائي لغوي كانت تحكمه بلا وعي قيود ومفاهيم ألفها، تأصلت عنده وعقد موازنات لغوية»[3] . لهذا لا ينبغي أن نبالغ في تقويم آراء **الطهطاوي** ونحملها أكثر مما تستحقه زاعمين أنه «استوعب ما أحرزه الغربيون في زمانه من تقدم الدراسات اللغوية»[4]، علينا أن نسأل : أي حد استطاع الطهطاوي أن يستوعب ما قدمته الدراسات اللغوية على عهده من آراء ونظريات ؟ وأين يتجلى ذلك ؟

يمكن القول إن فترة وجود **الطهطاوي** بفرنسا في الفترة الممتدة بين 1826 و 1831 تمثل بداية ظهور النحو المقارن في ألمانيا على يد فرانز بوب ومن جاء بعده من اللغويين الذين أرسوا دعائم المنهج التاريخي، الأمر الذي جعل بعض الدارسين يذهب إلى أن **الطهطاوي** في التحفة كان «يتعقب الكلمة في مساراتها التاريخية عبر العصور، وهو بذلك **يتبع المنهج التاريخي**»[5] .

1- التخليص، ص 217.
2- التخليص، ص 307.
3- البدراوي زهران : نفسه، ص 12.
4- البدراوي زهران : ص 285.
5- البدراوي زهران : المصدر نفسه، ص 62.

والحقيقة أنه لم يكن بإمكان **الطهطاوي** أن يعتنق المنهج المقارن ـ التاريخي الذي يشير إليه الباحث المذكور. وتجمع المصادر التاريخية على أن **الطهطاوي** تعرف إلى **دي ساسي** وبعض تلامذته وتبودلت بينهم المراسلات حتى بعد عودة **الطهطاوي** إلى مصر[1]. كما تجمع المصادر المتعلقة بتاريخ الفكر اللغوي الأوربي من جهتها على أن **بوب** مؤسس النحو المقارن التقى ب **دي ساسي** Sylvestre de Sacy أثناء إقامته بباريس ما بين 1812 - 1816. و من المعروف تاريخيا عن **ذي ساسي** « أنه قاوم القواعد المقارنة طوال حياته باسم القواعد العامة »[2]. ويؤكد **جورج مونان** Georges Mounin أن **دي ساسي** لم يجهل القواعد المقارنة فحسب، ولكنه أنكرها». وقد كان دي ساسي ـ كسائر الإيديولوجيين ـ متشبعا بأفكار الفيلسوف الحسي **كانديك** E.Candillac (1780 - 1715)، ومن جملتها أن اللغة شرط لوجود الفكر، وهي مقولة كانت شعار «الإيديولوجيين» لرفض عقلانية **ديكارت** وكل التيارات اللغوية الجديدة بما فيها المنهج المقارن الذي لم يعرف أي ازدهار حقيقي في فرنسا. يورد **جورج مونان** في هذا الصدد فكرة هامة **لمابي** مفادها : أن الفيلسوف **كانديك** قد قطع الطريق أمام اللغوي **بوب**[3]. في هذا المناخ الفكري الرافض لأي منهج لغوي جديد، لم يكن بإمكان **دي ساسي** أو غيره أن ينقل آثار المنهج التاريخي المقارن إلى **الطهطاوي**. ويبدو أن **الطهطاوي** ـ بإيعاز من **دي ساسي** ـ قد قرأ منطق **بورويال** و**كانديك**[4]. كما كتب عن مقولات أرسطو العشر ما يعكس وجهة نظر **كانديك** التي تقلل من قيمة منطق **أرسطو** ومقولاته[5].

مهما يكن، فإن المنهج المقارن أثناء وجود **رفاعة الطهطاوي** في فرنسا كان في بدايته ولم تكن الدراسات اللغوية في أوربا قد قطعت آنذاك أشواطا بعيدة إلا ما كان من شأو المنهج المقارن في ألمانيا. إن مغالاة بعض الدارسين العرب في الرفع من قيمة آراء الطهطاوي اللغوية ليس له ما يؤكده في تاريخ اللسانيات. وإنه لمن دواعي الاستغراب أن يزعم المرء أن **الطهطاوي** في التحفة «يعتمد في تعريفاته على المنهج الوصفي» ... مثلما يذهب إلى ذلك الزهراوي بدران قائلاً : «ويتضح لنا أنه يتبع الظاهرة اللغوية في

1- التخليص، ص 325 - 327.

2- G. Mounin : Histoire de la linguistique, p. 197.

3- Ibidem.

4- يقول الطهطاوي : «قرأت كتابا في علم المنطق الفرنساوي وعدة مواضع من كتاب لبير تروال من جملتها المقولات وكتابا آخر في المنطق يقال له كتاب **قندياق** غير فيه منطق أرسطو» التخليص، ص 334.

5- التخليص : ص 390.

كل حالاتها وأوضاعها المختلفة ويسجل ما يرى وهذا هو اتجاه المنهج الوصفي»[1].

الواقع أن أفضل موازنة محتملة بين الفكر اللغوي عند **الطهطاوي** والفكر اللغوي الغربي هي التي يمكن أن تكون بينه وبين معاصريه من الإيديولوجيين الذين كان **دي ساسي** أحد أقطابهم. أما أن نردد «أن **رفاعة الطهطاوي** يعد من رواد المدرسة الألسنية بمفهومها الحديث»، وأن ما قاله في هذا المجال كان سابقاً به النظريات اللغوية الحديثة ومعظمها لم تتحدد مفاهيمها وتتبلور أبعادها إلا بعد ظهور اللغوي الفذ **فرديناند دي سوسور**»[2]، فهكذا حكم مبالغ فيه، إذ ليس في عمل **الطهطاوي** ما يؤكده من بعيد أو قريب.

لقد كان بإمكان الذين جاءوا بعد **الطهطاوي** أن «يلتفتوا» إلى هذه الارتسامات الأولية الواردة في «التلخيص» و «التحفة» ويعملوا على تنميتها واستثمارها في تحليل اللغة العربية، وفي تبسيط نحوها التعليمي وتيسيره. «كان من الممكن أن نواكب الغربيين في هذا المجال الذي بعدت فيه المسافة بيننا وبينهم»[3]، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث لتضيع هذه الفرصة التاريخية أمام البحث اللغوي العربي. وكان علينا أن ننتظر مجيء رجالات علمية أخرى ستعمل بدورها على نقل الأفكار اللغوية الغربية الحديثة إلى الثقافة العربية.

إننا لا ننكر القيمة التاريخية لجهود **الطهطاوي** اللغوية التي تنم عن «اطلاع أولي» على بعض الآراء اللغوية السائدة في فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، لكن لا ينبغي أن نبالغ، فنذهب إلى ما ذهب إليه بعض الدارسين كما سبق، فَعَدَّ الطهطاوي أب اللسانيات الحديثة !!

1- البدراوي زهران : المصدر نفسه، ص 24* (كذا في النص الأصلي).

2- البدراوي زهران : نفسه، ص 391.

3- البدراوي زهران : نفسه، ص 385 هامش رقم 3.

الفصل الثاني

إرهاصات المنهج التاريخي ـ المقارن
في البحث اللغوي العربي الحديث

المبحث الأول
بدايات المنهج المقارن في أعمال جرجي زيدان

1.2- القضايا اللغوية في كتابات زيدان (1861 - 1914)

يمكن القول إن التصورات اللغوية الجديدة التي عرفتها أوربا ابتداء من العقد الثاني من القرن التاسع عشر أو ما دُرِجَ على تسميته بالفيلولوجيا المقارنة ـ أو النحو المقارن ـ دخل الثقافة العربية الحديثة مع كتابي زيدان «الفلسفة اللغوية» الصادر سنة 1886 و «تاريخ اللغة العربية» الصادر سنة 1904[1].

ولن نهتم كثيرا بأفكار جرجي زيدان من حيث إنها مضامين معرفية. ليس ذلك مهما في حد ذاته، لأن القضايا التي طرحها زيدان في كتابيه المذكورين لم يعد لها أي قيمة نظرية أو منهجية في الدرس اللساني العام المعاصر. سنركز اهتمامنا في هذا المبحث على المصادر النظرية والمنهجية التي انطلق منها زيدان في عرضه للقضايا اللغوية التي جاءت في كتاباته،كما سنسأل عن الكيفية التي استوعب بها مفاهيم الفيلولوجيا المقارنة وحاول تطبيقها على اللغة العربية.

1.1.2- أصل الكلمات في العربية

تناول زيدان في «تاريخ اللغة العربية» القضايا اللغوية ذاتها التي تناولها لغويو أوربا عامة وفرنسا خاصة خلال القرن التاسع عشر. في «الفلسفة اللغوية» يعرض المؤلف لجملة من الأمور اللغوية بعضها خاص بالعربية وأخواتها، وبعضها يتعلق باللغة البشرية عامة. ويشكل ما يتعلق بالعربية المحور الأساس في «الفلسفة اللغوية». يقول زيدان :

1- طبع كتاب «الفلسفة اللغوية» أول مرة ببيروت سنة 1886، وأعيد طبعة سنة 1904 وبعد ذلك توالت طبعاته مصورة عن الطبعة الثانية. وقد اعتمدنا الطبعة الصادرة عن دار الجيل بيروت 1982. أما كتاب «تاريخ اللغة العربية» فقد صدر بالقاهرة سنة 1904، وأعيد طبعه بعد وفاة زيدان تحت عنوان : «اللغة العربية كائن حي» مراجعة الدكتور مراد كامل. دار الهلال، القاهرة. دون تاريخ وهي الطبعة التي اعتمدناها.

ـ موضوع هذا الكتاب البحث التحليلي في كيف نشأت اللغة العربية وتكونت باعتبار أنها اكتسابية خاضعة لناموس الارتقاء العام. ومدار البحث على خمس قضايا ونتيجة وهي :

– **القضية الأولى** : أن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هي تنوعات لفظ واحد.

– **القضية الثانية** : أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها (كحروف الجر والعطف وأحرف الزيادة ونحوها) إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها.

– **القضية الثالثة** : أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يُرَدُّ معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية.

– **القضية الرابعة** : أن جميع الألفاظ المطلقة كالضمائر وأسماء الإشارة ونحوها قابلة الرد بالاستقراء إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ.

– **القضية الخامسة** : أن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ وضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية.

النتيجة : أن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول قليلة أحادية المقطع معظمها مأخوذة عن محاكاة الأصوات الخارجية وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزيا»(1).

وتجمل الأمور اللغوية المتعلقة باللغة البشرية عامة التي ذكرها زيدان فيما يلي :

تحدث **زيدان** عن «تقسيم اللغات باعتبار درجات تهذيبها إلى مرتقية وغير مرتقية محددا سمات كل منها». كما قدم فكرة عامة عن تقسيم اللغات إلى طائفتين عظيمتين : الطائفة الآرية أو الهندية الأوربية محددا صفاتها المميزة في كونها «مؤلفة من أصول قابلة التصريف إدراجاً وأن الاشتقاق فيها يقوم بإضافة أدوات معظمها ذات معنى في نفسها. وهذه الأدوات تلحق غالباً في آخر الأصل وأحياناً في أوله» (ص : 14).

أما الطائفة الثانية فهي الطائفة السامية ومنها العربية. ومن صفات الساميات «أنها

1- الفلسفة اللغوية : ص 9. وكذلك صص 31 - 32. في تحليل هذه القضايا بدءا من ص : 33 إلى 101 نقلا عن الفلسفة اللغوية باختصار من ص 11 إلى ص 30. ومن ص 102 إلى ص 153.

مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة في الاشتقاق، أي أنه لا يؤثر على أحرفها، بل هو يقوم فيها بتعبير الحركات التي يتوقف عليها نوع الدلالة. مثاله في العربية «قتل» وهو أصل يتضمن معنى القتل . فبتغيير الحركات فيه تشتق عده أفعال أو أسماء أو نعوت تبعاً لنوع ذلك التغيير ...»

وتحدث زيدان عن «أصل اللغات» بحسب الأمم التي تتكلم بها. «الأمم التي تتكلم الآرية ترجع إلى أصل واحد، وهكذا الطوائف الأخرى. فالأمم التي تتكلم الآرية بعضها في أوربا وبعضها في الهند والفرس. فمهما تباعدت المسافة بينها واختلفت عوائدها وأخلاقها، فلا ريب أنها كانت في أقدم أزمنة التاريخ أمة واحدة أو عائلة واحدة تعيش في بقعة واحدة ثم قضت الأحوال بتفرقها (..) وهكذا أيضا اللغات السامية». (ص: 18).

وبالرغم من اختلاف اللغات اليوم وتباعدها في الزمان والمكان، تتوافر اللغات، حسب زيدان، على بعض المواد المتشابهة في هذه اللغات كما يظهر ذلك في أقدم ألفاظ اللغة مثل : الضمائر والأعداد وأسماء ضروريات الحياة كالطعام والشراب والمأوى والملبس وما يتعلق بذلك» (ص:21).

ثم عرض المؤلف نشأة اللغة عند الإنسان موضحاً أنها وليدة الطبيعة الاجتماعية للإنسان وميله للتعاون والتعاضد بتبادل المعاني والمقاصد أي التفاهم. وقد مرت اللغة عند الإنسان بدورين أساسين :

ـ دور تقليدي ـ ودور نطقي. في الدور الأول عمل الإنسان على تقليد الظواهر التي أراد التعبير عنها مقلداً الأشكال الإشارية والأصوات التي تعرف إليها في الطبيعة. أما الدور النطقي فيريد به المؤلف «حال اللغة بعد تحول ألفاظها بالقلب والإبدال والنحت من تقليد الأصوات تقليداً بسيطا إلى ألفاظ مستقلة يدل بها على المعاني دلالة صماء لا تظهر فيها صبغة التقليد»[1].

2.1.2- العربية كائن حي

ذكر زيدان في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الفلسفة اللغوية» أنه «سيشفع هذا الكتاب بكتاب آخر في تاريخ اللغة العربية باعتبار أنها كائن حي خاضع لناموس الارتقاء

1- جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 114.

العام نقصر الكلام فيه على ما لحق اللغة من التنوع والتفرع والنمو والارتقاء في ألفاظها وتراكيبها بعد أن تم تكونها وصارت ذات قواعد وروابط».

وبالفعل ظهر كتاب «تاريخ اللغة العربية» (سنة 1904) وموضوعه «النظر في ألفاظها وتراكيبها بعد تمام تكونها، فيبحث فيما طرأ عليهما من التغير بالتجدد أو الدثور، فيبين الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال، وما قام مقامها من الألفاظ الجديدة والتراكيب الجديدة بما تولد فيها أو اقتبسته من سواها، مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم وتولد الجديد، وأمثلة مما دثر أو أهمل أو تولد أو دخل»[1].

ويقسم المؤلف تاريخ اللغة العربية باعتبار ما مر عليها من المؤثرات الخارجية إلى «ثمانية أدوار أو عصور هي :

أولاً - **العصر الجاهلي** : وفيه ما لحق اللغة من التنوع والتغير في ألفاظها وتراكيبها قبل الإسلام»، و «ما دخلها من الألفاظ الأعجمية من اللغات الحبشية والفارسية والسنسكرتية والهيروغليفية واليونانية».

ثانياً - **العصر الإسلامي** : أي أثر الإسلام في ألفاظ اللغة وتراكيبها «مما اقتضاه الشرع والفقه».

ثالثاً - **الألفاظ الإدارية** : في الدولة العربية التي اقتضاها التمدن الإسلامي عند إنشاء دولة العرب.

رابعاً - **الألفاظ العلمية في الدولة العربية** «التي اقتضاها نقل العلم والفلسفة من اليونانية».

خامساً - **الألفاظ الاجتماعية ونحوها.**

سادساً - **الألفاظ النصرانية.**

سابعاً - **الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم** بعد زوال الدول العربية وتولي الدول التركية والكردية وغيرها».

ثامناً - **«النهضة الحديثة»** وما «اقتضته من تولد الألفاظ الجديدة واقتباس الألفاظ

1- جورجي زيدان : العربية كائن حي، ص 19.

الإفرنجية للتعبير عما حدث من المعاني الجديدة في العلم والصناعة والتجارة والإدارة»[1].

2.2- السمات المنهجية في أبحاث زيدان اللغوية

1.2.2- مستويات البحث اللغوي

من المؤكد أن القضايا التي عرضها زيدان في «الفلسفة اللغوية» و«تاريخ اللغة العربية» قضايا لغوية حديثة. إن الخوض في قضايا تتعلق بأصل اللغة ونشأتها والأدوار التي قطعتها وتفرعها إلى فصائل تشترك في جملة من الصفات المميزة، وكيف تتطور بنية الأشكال اللغوية والموازنة بين مواد لغوية تنتمي لعدة لغات، إما من فصيلة واحدة أو من فصائل متباينة، كل ذلك من القضايا اللغوية التي عولجت بشكل مفصل و دقيق في الفكر اللغوي الأوربي منذ بداية القرن التاسع عشر في إطار ما يعرف بالفيلولوجيا المقارنة.

أشار زيدان إلى ذلك قائلا : « والبحث في فلسفة اللغة لا يزال جديداً عندنا يحتاج إلى تمحيص وانتقاد. فنتقدم إلى أرباب الأقلام أن ينتقدوه ونستلفت انتباه أئمة اللغة إلى النظر فيه والتوسع في موضوعه»[2]. ويشير زيدان إلى أن هذه القضايا جديدة في أوربا نفسها، «فكيف بالأبحاث الفلسفية وهي جديدة حتى في لغات الإفرنج»[3]. فماذا يقصد زيدان بهذه التسمية ؟

من الأمور المثيرة للانتباه عند زيدان تقسيمه مستويات البحث اللغوي وتحديد إطار كل منها، مميزا بين العلوم اللغوية الحديثة وبين النشاط اللغوي القديم. وبعد أن يتساءل زيدان عن عدد العلوم اللغوية، يجيب قائلا : «أما اللغات على العموم فعلومها درجات متتاليات :

الأول : يبحث عن ألفاظ اللغة من حيث بناؤها ومشتقاتها وتركيبها وإعرابها وأوجه استعمالها حقيقة أو مجازا لمقاصد في التعبير، وهذا ما تُعَلِّمُهُ المدارس في أيامنا

1- ج، زيدان : المصدر المذكور، ص 20 - 26.

2- الفلسفة اللغوية : ص 10.

3- زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 8.

كالصرف والنحو والمعاني والبيان مما هو ضروري لكل كاتب.

الثاني : يبحث عن تاريخ تلك الألفاظ وتنوعها ودلالتها مع ما طرأ عليها من التغيير بتجريد بسيطها وحل مركبها، وهذا ما ربما صحت تسميته «علم اللغة أو فلسفتها» وبموجبه تُرَدُّ ألفاظ كل لغة إلى أصول أو موضوعات محصورة عَدّاً بسيطة بناءا.

الثالث : مقابلة هذه الأصول من لغات مختلفة وردها إلى أصول قليلة مشتركة، وهذا ما يدعى بعلم «مقابلة اللغات». وقد تمكن علماؤها بواسطته من تقسيمها إلى صنوف ورتب وعائلات. وهم ينتظرون الظفر برد جميع ما ينطق به البشر إلى أصول قليلة.

الرابع : وهو أسماها يبحث عن كيفية توصل الإنسان إلى هذه الأصول وكيف نطق بها أولا»[1].

وفي مقدمة كتابه «تاريخ اللغة العربية» يقسم زيدان البحث في اللغة إلى علمين أساسين : «الفلسفة اللغوية» و «تاريخ اللغة». فالفلسفة اللغوية تبحث في كيف نطق الإنسان الأول، وكيف نشأت اللغة، وتولدت الألفاظ من حكاية الأصوات الخارجية كقصف الرعد وهبوب الريح والقطع والكسر وحكاية التف والنفخ والصفير ونحوها، ومن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزياً كالتأوه والزفير، وكيف تنوعت تلك الأصوات لفظاً ومعنى بالنحت والإبدال والقلب حتى صارت ألفاظاً مستقلة وتكونت الأفعال والأسماء والحروف وصارت اللغة على نحو ما هي عليه.

«أما تاريخ اللغة فيتناول النظر في ألفاظها وتراكيبها بعد تمام تكونها، فيبحث فيما طرأ عليهما من التغيير بالتجدد أو الدثور، فيبين الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال، وما قام مقامها من الألفاظ الجديدة، والتراكيب الجديدة بما تولد فيها أو اقتبسته من سواها، مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم وتَوَلُّد الجديد (..) وهو بحث لغوي تاريخي فلسفي»[2].

يكشف هذان التقسيمان لمستويات البحث في اللغة عن ريادة زيدان للدراسات اللغوية العربية في هذه الحقبة فضلاً على أنهما تقسيمان يبينان بوضوح اطلاعه على المناهج اللغوية الجديدة في أوربا ومواكبته لما جَدَّ فيها. وقد انفرد زيدان في الثقافة

1- زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 30. دار الجيل، بيروت.

2- زيدان : اللغة العربية كائن حي، ص 19.

اللغوية العربية ببعض التسميات الجديدة مثل «علم اللغة أو فلسفتها» وعلم «مقابلة اللغات». ولعله كان يقصد بالتسمية الأولى ما يعرف اليوم باللسانيات وبالثانية ما كان يعرف بالنحو المقارن.

بيد أن هذين التقسيمين لا يخلوان من اضطراب في تحديد المعنى المقصود من عبارة «الفلسفة اللغوية». فهو أحيانا يعرف «الفلسفة اللغوية» بأنها البحث في تاريخ الألفاظ وتنوعها ودلالتها و ما طرأ عليها من تغيير، و أحيانا أخرى يجعل موضوعها البحث في «كيف نطق الإنسان الأول وكيف نشأت اللغة وتولدت الألفاظ من حكاية الأصوات ... الخ».

ويبدو أن زيدان يجمع تجاوزا بين المنهجين المقارن والتاريخي، وهو ما يفسر قوله بأن الأبحاث في «الفلسفة اللغوية جديدة حتى في لغة الإفرنج». هل كان زيدان يشير بذلك إلى المنهج التاريخي ؟ ومعلوم أن هذا المنهج لم يظهر إلا منذ 1875 مع جماعة لايبزغ : هرمان بول وكارل أوسطوف وكارل بروكمان وغيرهم ممن عرفوا بالنحاة الشباب(1). وإذا صح هذا التأويل، فما دخل البحث في نشأة اللغة وتكوينها ومسألة الارتقاء والانحلال وهي الموضوعات التي بحث فيها المقارنون ورفضها التاريخانيون ؟(2). إن تقويما حقيقيا للكتابة اللغوية عند زيدان وما تتضمن من آراء لغوية جديدة في الثقافة العربية لا يتأتى لنا إلا في ضوء تتبع نقدي للمصادر التي اعتمدها زيدان منطلقاً لأعماله اللغوية.

2.2.2- مصادر زيدان اللغوية

يصعب على قارئ كتابي جورجي زيدان أن يتعرف بوضوح على المصادر التي استقى منها المؤلف مواد كتابيه والإطار النظري الذي تناول من خلاله القضايا اللغوية المشار إليها. والواقع أن مؤلفات زيدان اللغوية تعاني من خلل منهجي بارز يتمثل في خلوها من أي إحالة إلى المصادر المعتمدة في البحث. وإذا استثنينا الإحالة الوحيدة

1- O. Jespersen : Langage, PP 91-92, Payot, Paris, 1976/1923.
- G. Mounin : Histoire de la linguistique, P. 207.
2- Ibidem, P. 213.
- R. H. Robins : Brève histoire de la linguistique de Platon à Chomsky, P. 196 et suiv, Seuil, Paris 1976/1967.

التي ذكر فيها زيدان أحد مصادره بصفة عامة جدا قائلاً : «ومن رأى أستاذنا المرحوم فانديك»[1]، لانجد ما يساعدنا بدقة على تحديد الأسس النظرية والمنهجية التي اعتمدها المؤلف.

وبالجملة لا يحدد زيدان المصادر التي اعتمدها ـ كما نفعل اليوم ـ، ولا يذكر عمَّنْ أخذ أو اعتمد من العلماء، مكتفيا بنسب الآراء اللغوية نسبة عامة كأن يقول : «وقد اختلف اللغويون»[2] أو «ويسميه علماء اللغات السامية»[3]. و استعمل زيدان لفظ «فيلولوجي» دون أن يعطيه أي مقابل بالعربية[4]. إن زيدان في كل هذه التعابير لايسمي اللغويين أو العلماء بأسمائهم.

تمكن القراءة المتأنية لمضامين كتابي زيدان في ضوء تاريخ الفكر اللغوي الحديث من القول إن اطلاع زيدان على الأفكار اللغوية السائدة في أوربا وتأثره بها مسألة ليس فيها أدنى شك. ويظهر تأثر زيدان بالمنهج المقارن فيما نلحظه عنده من حديث عن تقسيم اللغويين المقارنين الألمان للغات. يقول زيدان : «إن فيلولوجي هذا العصر قسموها باعتبار درجات تهذيبها إلى مرتقية وغير مرتقية، وهذه الأخيرة تتضمن أدنى اللغات بياناً وأبسطها ألفاظاً»[5] ثم يضيف قائلا : «كما أن اللغات المرتقية لغات متصرفة ولغات غير متصرفة»[6]. وإذا كان زيدان لا يشير إلى المصادر التي أخذ عنها أو إلى صاحب التقسيم، فمن السهل علينا أن نقول إن هذا التصنيف في أصله يعود للعالم الألماني شليجل[7]. A.Schlegel (1821 - 1867)

ومن التصورات المقارنة التي نجدها عند زيدان قوله : « والطائفة الآرية ترجع إلى ثلاثة أصول أيضا، وهي اللغتان اللاتينية واليونانية واللغة السسكريتية (الهندية القديمة). فمن اللاتينية تفرعت معظم لغات أوربا، ومن اليونانية تفرع بعض آخر وتنوع

1- الفلسفة اللغوية : ص 16.
2- نفسه، ص 27.
3- نفسه، ص 17.
4- نفسه، ص 12.
5- الفلسفة اللغوية، ص 12.
6- نفسه، ص 13.

7- O. Jespersen : op cité, P. 37.
- G. Mounin : op.cité, PP 164-165

ما بقي من السنسكريتية. وترجع هذه اللغات الثلاث إلى أصل واحد أو هي لغة واحدة مفقودة يسمونها اللغة الآرية»[1].

ويقدم زيدان في «الفلسفة اللغوية» جملة من المعطيات اللغوية استهدف من وراءها إجراء مجموعة من المقارنات بين العربية وأخواتها السامية التي تتعلق بأصول بعض المفردات والصيغ وتطورها كما كان يفعل رواد المنهج المقارن وعلماء الساميات خلال القرن التاسع عشر. ولذلك نجده يستعمل في «الفلسفة اللغوية» بعض المفاهيم المعروفة في المنهج المقارن كمفهومات الأصل والمقابلة والتطور. وفي ضوء هذه المفهومات حاول زيدان تفسير وجود بعض الكلمات في اللهجات العربية المعاصرة مثل : «شو» البيروتية و «ايش» و «أيشو» عند اللبنانيين و«شونو» عند السودانيين، وكلها بمعنى «ماذا». يمكن من «تتبع هذه اللفظة إلى أصلها (...) تماماً. فمن **المقابلة** يتضح جلياً أن الأصل فيها جميعها عبارة مؤلفة من ثلاثة ألفاظ مستقل أحدها لفظاً ومعنى، وهي «أي شيء هو»[2].

ويعطي زيدان بعض الأمثلة لاشتراك اللغة العربية وأخواتها السامية في أصل حروف الجر وغيرها لفظاً ومعنى. «إن الباء لا تستعمل في سائر تلك اللغات إلا للظرفية. إن هذا هو الأصل في دلالتها وما بقي من المعاني ليس إلا تفنناً عربياً»[3]. ومن ذلك أيضا «أن اللام كالباء تستعمل لمعان كثيرة. ومن المقابلة يتضح أن الأصل في دلالتها الإضافة والقصد، أي أنها تتضمن معنى «إلى» وهي تقوم مقامها في العربية والسريانية»[4].

وينطبق مفهوما الأصل والمقابلة (المقارنة) على حروف أخرى عدا حروف الجر. بالنسبة للكاف «تظهر المقابلة أن الأصل في مؤداها التشبيه بدليل كونها هكذا في بقية اللغات الشرقية. أما أصلها، فيظهر أنه فُقِدَ من العربية وحُفِظَ في أخواتها. فهي في العبرانية بقية «كن» مفادها «كذا»، وربما يقصدون بقولهم «زيد كالأسد» زيد كذا الأسد. و «كن» هذه منحوتة من «أكن» في العبرانية بمعنى حقيقة، وفي الكلدانية

1- الفلسفة اللغوية، ص 17.
2- الفلسفة اللغوية، ص 45.
3- نفسه، ص 48.
4- نفسه، ص 48.

«هيككن» أو «هكي». وقد شق العبرانيون من «أكن» أيضا «أك» ظرفا يعني التأكيد»[1] .

ولمعرفة أصل بعض الألفاظ يقوم المؤلف بتحليلها في ضوء مقارنتها أو مقابلتها ـ كما يقول هو ـ بين سائر اللغات السامية المعروفة، ثم يوسع المقابلة لتشمل اللغات الآرية من لاتينية ويونانية وسنسكرتية وجرمانية وإنجليزية وفارسية على نحو ما فعل في تحليله لأصل لفظة «لا» الدالة على النفي.

ومن أمثلة المقارنة بين اللغات السامية التي أوردها زيدان أن : « الباء العربية هي بقية كلمة ذات معنى مستقل هي «بيت»، بدليل أن هذه الأخيرة في السريانية بمعنى «في» أو «بين»، فيقولون (بيت قبورا) أي في أو بين القبور. ولنا (بي) وهي حلقة موصلة بين «بيت» و «الباء». وقد وردت في التلمود والترجوم بمعنى في البيت وهي في السريانية مجزوم بيت، وتفيد الظرفية فيكون لنا سلسلة تامة الحلقات وهي بيت ثم «بي» ثم «ب»»[2].

إن تأثر زيدان بالمنهج المقارن واضح، كما يظهر من الحيز الذي احتلته إشكالية أصل اللغة ونشأتها في «الفلسفة اللغوية». ونعتقد أنه لا فائدة من وراء عرض ومناقشة ما أورده زيدان في موضوع نشأة اللغة الأولى عند الإنسان الأول. ولا تهمنا أيضاً الأمثلة والحجج التي دعم بها المؤلف رأيه في الموضوع. إن عرض هذه القضية ـ الإشكالية والبحث لها عن حل علمي ضرب من الوهم. فالمشكل في أصله يقوم على الحدس والتخمين. وليس بين أيدينا سوى روايات التوراة والإنجيل التي تفتقر إلى سند علمي منطقي ومعقول.

وتسمح لنا بعض فقرات كتاب «اللغة العربية كائن حي» أن نقول دون تحفظ إن زيدان استفاد كثيرا من أفكار داروين ومن حذا حذوه من اللسانيين أمثال شلايشر A.Schlei cher وماكس مولر. يقول زيدان : « من أهم نواميس الحياة النمو أو التجدد وهو ينطوي على دثور الأنسجة، وتولد ما يحل محلها (...)، فالجسم الحي في

1- الفلسفة اللغوية، ص 49.

2- نفسه، ص 48 .

انحلال وتولد دائمين (...). فالتجدد ضروري للحياة (...) ويتبع الأحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قبيل ظواهر الحياة أو توابعها (...) كاللغة والعادات والديانات والشرائع والعلوم والآداب ونحوها (...)، فهي خاضعة لناموس النمو والتجدد وناموس الارتقاء العام»[1].

إنها بدون شك أفكار داروينية في النشوء والارتقاء. هل اطلع زيدان مباشرة على الداروينية اللغوية كما يمثلها شلايشر أم إن الأمر لا يعدو أن يكون حديثا مبسطا وفهما عادياً لأفكار داروين كما جاءت في أصل الأنواع (1859) على غرار ما صنع الطبيب والفيلسوف السوري شلبي الشميل (1850-1917) الذي يعد أول من أدخل أفكار داروين في التفكير البيولوجي إلى الشرق العربي في مقالات نشرها في مجلة المقتطف[2]؟ إلى أي حد استفاد زيدان من فكر داروين أو شلايشر؟ ما درجات تمثله ووعيه بقيمة المنهج الارتقائي في اللغة وأهميته ؟

يخلو كتاب «اللغة العربية كائن حي» من أي إشارة للمنطلقات التي صدر عنها زيدان، إذ لا نعثر على أي إحالة موثقة للمصادر النظرية، كما لا نجد تقديماً للهدف المنهجي من وراء دراسة اللغة ارتقائيا.

نميل في أول وهلة إلى ربط كتاب جورجي زيدان بالإطار العام للخطاب النهضوي العربي، فنجعل من الافتراضات اللغوية الواردة في هذا الكتاب جزءاً من التدابير العملية ووسيلة لتفسير ما تتطلبه الحياة العصرية الناهضة في الشرق العربي من اللغة العربية لمواجهة مظاهر التطور ومواكبة التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية. وقد يدعم هذا الفهم أن زيدان نفسه كان من أبرز دعاة تجديد اللغة العربية بتطوير أساليبها وتراكيبها وتنمية مفرداتها باعتبار ذلك من «ناموس الحياة». يقول زيدان : «إننا نَعُدُّ ما كتبناه في هذا الموضوع الجديد خواطر سانحة، فتحنا بها باب البحث لأئمة الإنشاء وعلماء اللغة. وقد أصبحت اللغة بعد هذه النهضة في العلم والأدب والشعر في غاية

1- اللغة العربية كائن حي، ص 23 - 24.

2- ألبرت حوراني. الفكر العربي في عصر النهضة، ص 297. دار النهار، للنشر، بيروت 1961 - 1961.

الافتقار إليه، ليعلم حملة الأقلام أن اللغة كائن خاضع لناموس الارتقاء، تتجدد ألفاظها وتراكيبها على الدوام»[1].

وموقف زيدان يعكس بالدرجة الأولى موقف الكاتب والأديب الذي يريد أن يُطَوِّع اللغة للتعبير عما تجيش به مشاعره، وما تقع عليه عينه، رافضا كل أنواع التقليد والاتباع مهما كانت مصادره. ويعرب زيدان عن ذلك صراحة : « إن لنا أن نُخلِّص أقلامنا من قيود الجاهلية، ونخرجها من سجن البداوة، وإلا فلا نستطيع البقاء في هذا الوسط الجديد. فلا ينبغي لنا احتقار كل لفظ لم ينطق به أهل البادية منذ بضعة عشر قرناً، لأن لغة البراري والخيام لا تصلح للمدن والقصور إلا إذا ألبسناها لباس المدن»[2].

وقد يرى البعض أن زيدان ينقل في «اللغة العربية كائن حي» ما أورده السيوطي في باب معرفة الألفاظ الإسلامية[3] باب معرفة المولد[4]، حيث يذكر السيوطي بعض الألفاظ الإسلامية «التي حدثت في صدر الإسلام والأسماء التي كانت نزلت، وما سمع عن النبي (ﷺ) ولم يسمع عن غيره». وفي معرض كلامه عن «معرفة المولد» يورد السيوطي بعض الألفاظ المولدة. كما عرض السيوطي قائمة مطولة بالأسماء المعربة[5] التي تتوزع بين ما أخذه العرب من الفارسية والرومية والسريانية والنبطية والحبشية والهندية.

ويذكر بعض الدارسين العرب أيضاً أن ما أورده زيدان في كتابه الآخر «الفلسفة اللغوية» «هو بعض المشار إليه لدى القدماء تحت باب الاشتقاق الأكبر. ويعتبر ابن فارس في كتابه «المقاييس»، وابن جني في كتابه «الخصائص» من خير من تحدث في هذا النوع من توليد الكلمات (...) وقد سبقهما في هذه الملاحظة الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي»[6].

ويرى آخرون أن زيدان في «الفلسفة اللغوية» حاول أن يعرض شيئا مما كان متداولاً

1- اللغة العربية كائن حي، ص 21.
2- نفسه، ص 139.
3- السيوطي : المزهر في علوم اللغة العربية، ج 1 ص 294.
4- السيوطي : نفسه ج الأول، ص 304 - 321.
5- نفسه، ص 275 - 283.
6- عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوي، ص 79. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1985/2.

بين علماء الغرب في زمانه عن طبيعة اللغة ووظيفتها وطرق تدريسها، وأن يستفيد بذلك كله في دراسة اللغة العربية مستعينا مما كتبه عنها المستشرقون»[1].

والواقع أن ربط الكتابة اللغوية عند زيدان من حيث قضاياها ومنهجها بإطار النهضة العربية الحديثة العام أو بالتراث اللغوي العربي أمر وارد كما نص على ذلك كثير من الباحثين. بيد أن التحليل النقدي السليم يقتضي عدم الوقوف عند الإقرار بأن زيدان استفاد في كتابه «الفلسفة اللغوية» من بعض النظريات اللغوية التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ومن جهود المستشرقين في دراسة اللغة العربية واللغات السامية»[2]. فما مصادره اللغوية الحديثة ؟

إن قراءة متأنية لكتابي زيدان في ضوء الأدبيات اللغوية للقرن التاسع عشر تبين بوضوح اطلاع زيدان المباشر على أمهات مصادر الدراسة اللغوية في الغرب كأعمال رينان (1823 - 1892) وماكس مولر (1823-1900) Max Muller وويتني Whiteny (1827 - 1894) ودار مستتر (1848 - 1888) Darmesteter وبريال (1832-1915) Bréal، التي تشكل في مجملها النواة الأساس لما يتضمنه كتابي زيدان من تصورات لغوية.

في «الفلسفة اللغوية» مثلاً نجد صدى واسعاً لآراء ونظريات رينان وماكس مولر وويتيني. لقد سبقت الإشارة إلى أن نتيجة القضايا الخمس التي درسها زيدان في «الفلسفة اللغوية» قادته إلى اعتبار اللغة العربية لغة «مؤلفة أصلاً من أصول محصورة عدا، أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزيا»[3]. ويقول زيدان في موضع آخر «ثم إن النمو والتطور من الأصل الثنائي إلى الثلاثي أو الرباعي يكون بسبب النحت أو القلب أو الاستعارة»[4].

وتشكل هذه الفكرة ذاتها جوهر نظرية إرنست رينان E. Renan (1823 - 1892) حول نشأة اللغات السامية أو ما يسميه هو «اللغة السامية النموذجية» Prototype[5]

1- محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 19 هامش رقم 1.

2- محمود السعران : علم اللغة، هامش صفحة 21.

3- الفلسفة اللغوية : ص 22. وص 100.

4- نفسه، ص 74.

5- E. Renan : Histoire générale des langues sémitiques, p. 91 et suiv, Imprimerie Impériale ; Paris, 1847/1858.

يفرض رينان أن وضعية الساميات في حالتها الأولى تشبه وضع اللغة الصينية أي أنها لغة أحادية المقطع ليس لها مقولات نحوية وبدون حالات إعرابية. ويذكر رينان نفسه أن الفكرة المتعلقة بنشأة اللغة الأولى عند الإنسان في شكل لغة أحادية المقطع وردت عند JacobGrimm (1785 - 1865)[1]. أما بالنسبة لأصل اللغات السامية « فإن الافتراضات نفسها ـ قد تبناها ـ باعتبارها على الأقل محتملة ـ ميكايليس Michaelis وأدلونج وكلابروت Klaproth وجيسنيس Gesenius وكيوم دو همبولدت G.De Humboldt وأصبحت هذه الفكرة اليوم بألمانيا قاعدة نسق في الفيلولوجيا المقارنة»[2].

وعندما يتحدث زيدان عن نشأة اللغة عند الإنسان الأول يذهب إلى أن الطبيعة الاجتماعية، وميل الإنسان طبيعيا إلى التعاون والتعاضد اللذين يتمان بتبادل المعاني والمقاصد هو ما يؤدي في النهاية إلى التفاهم أي إلى اللغة[3]. إن هذه الفكرة التي ترد نشأة اللغة إلى «الرغبة في التواصل» تشكل منطلقاً لقضية أصل اللغة عند اللساني الأمريكي وليام ويتني (1827 - 1894) W.D.Whitney.

يقول ويتني : «إن الرغبة في التواصل هي القوة المحركة لنمو اللغة»[4]. ويقول كذلك : « إن الخطاب وُلِدَ نتيجة الرغبة في التواصل»، أن هذه الرغبة في التواصل عند الإنسان مبرر وحيد وكاف لنشأة اللغة عند الإنسان[5].»

وإذا كان زيدان ـ كما مر بنا ـ يعتبر الدور التقليدي دوراً أساساً في وضع اللغة إشارة وأصواتا»[6]، فإن كلا من رينان وويتني أكدا بدورهما على أهمية التقليد في لغة الإنسان الأول.

وتظهر في «الفلسفة اللغوية» أفكار وآراء ماكس مولر (1823-1900) بشكل واضح، حينما يؤكد زيدان أن الغريزة هي الأصل في نشأة اللغة عند الإنسان. و عن ماكس مولر

1- E. Renan : De l'origine du langage, pp 108-109, Camann Levry Editeurs, Paris, 1883.

2- E. Renan : Histoire générale des langues sémitiques, p. 92.

3- الفلسفة العربية، ص 102.

4- W.D. Whitney : La vie du langage, pp : 235-236. Librairie Calmann Levry Editeurs, Paris, 1883.

5- الفلسفة اللغوية، ص 103.

6- W Withney : ibidem, p : 243 et Renan : De l'origine, pp. 135-136.

أخذ زيدان أيضا تقسيم اللغات إلى ثلاث طوائف : آرية وسامية وطورانية[1].

وقد يطول بنا الحديث لو أردنا أن نعرض بتفصيل مصادر «الفلسفة اللغوية»، وأبرزها فيما نعتقد «تاريخ اللغات السامية العام» لرينان. ودليل هذا الاطلاع المباشر على المصادر اللغوية الغربية، أن المقارنة «أو المقابلات» التي ذكرها زيدان[2] بين الساميات والآريات بشأن الضمائر والأعداد وأسماء ضروريات الحياة وردت أصلا وبشكل صريح وَحَرْفيٍّ عند رينان[3].

وفي كتابه «اللغة العربية كائن حي» يعتمد زيدان أساساً كتاب دار مستتر A.Darmesteter (1848 - 1888) [4]، حيث نلاحظ تشابها كبيرا بين محتويات الكتابين، مع تعريب الأمثلة والشواهد التي قدمها زيدان. ومن أمثلة مظاهر هذا التشابه أيضا، نشير إلى أن الفكرة التي يقدمها زيدان في تمهيد كتابه «اللغة العربية كائن حي» حول النمو والتجديد والارتقاء والانتقاء الطبيعيين تماثل إلى حد كبير ما كتبه مؤلف «حياة الكلمات» دار مستتر « بشأن ما أسماه» بالتحول في اللغة Transformisme dans le langage[5].

ومن أمثلة التشابه كذلك بين الرجلين، ما أورده زيدان حين قال «إن الإسلام أثر في اللغة تأثيرا كبيرا»[6]. إن الفكرة ذاتها واردة عند دار مستتر حين يذهب إلى أن مجيء المسيحية يعتبر من الأحداث التاريخية التي أدت إلى تغيير معالم اللغتين اللاتينية والفرنسية[7]. و حديث زيدان عن الألفاظ المهملة هو حديث دار مستتر عن الكيفية التي تقود إلى موت الألفاظ[8] كما أن مصطلح الألفاظ العامة عند زيدان[9] يقابل مصطلح Termes généraux عند مؤلف حياة الكلمات[10].

1- الفلسفة اللغوية، ص 27.

2- نفسه، ص 21 وما بعدها وص 90.

3- Renan : Histoire générale, p. 450 et suivantes.

4- A. Darmesteter : La vie des mots, Editions Champ Libre, Paris, 1887/1979.

5- A. Darmesteter : Ibidem, p 31.

6- اللغة العربية كائن حي، ص 64.

7- Ibidem, p : 81.

8- Ibidem, p : 131.

9- اللغة العربية كائن حي، ص 86.

10- Ibidem, p : 134.

ومن المعلوم أن القضايا التي درسها دار مستتر لم تكن جديدة في الفكر اللغوي (الغربي) وإن عرفت على يده نوعاً من الضبط والدقة نحو التقعيد الشامل لمظاهر التطور في ألفاظ اللغة ودلالتها. وكان ويتني قد درس في «حياة اللغة» "La vie du langage" (لنلاحظ تشابه العناوين عند ويتني ودار مستتر ـ وزيدان) مظاهر تطور الألفاظ وحددها في المستويات الثلاثة التالية[1] :

ـ تغيير معاني الألفاظ،

ـ اختفاء الألفاظ (أو الصيغ)،

ـ توليد الكلمات والصيغ الجديدة معتبرا أن استعمال اللغة أساس التطور[2].

ومعروف أيضا أن قضايا التطور في ألفاظ اللغة ستأخذ طابعا نظريا في إطار ما أطلق عليه بريال (1832 - 1915) لأول مرة علم الدلالة [3] Sémantique.

3.2.2- زيدان والدرس اللغوي العربي الحديث

بالرغم من أن زيدان يعتبر من الأوائل الذين أدخلوا مبادئ المنهج اللغوي المقارن إلى الثقافة اللغوية العربية الحديثة، يستغرب الباحث المتتبع للكتابة اللغوية العربية تجاهل اللغويين العرب المحدثين والمعاصرين جهود هذا الرجل، وتقليلهم من قيمته العلمية في مجال الدراسات اللغوية. وعندما خص أحدهم زيدان بمؤلف كامل عن حياته ومؤلفاته وما قيل فيه[4]، لم يشر ولو بكلمة واحدة إلى كتابيه في مجال اللغة، بل إنه لم يذكرهما ضمن مؤلفاته. إنه موقف يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

وقريب من هذا التجاهل، موقف بعض اللغويين العرب الذين يقللون من قيمة أعمال زيدان اللغوية فلا يَرِدُ لها ذكر على الأقل من الناحية التاريخية. يقول الشيخ صبحي الصالح مُقيِّماً أعمال زيدان اللغوية وآراءَهُ «إنه كان سباقاً إلى إدخال الضيم على العربية واستعجاله المقارنة بينها وبين اللغات الحية في كتابه «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية». وقد كان في زيدان عيب أقبح يتمثل في سطحية علمه بهذه الأمور إذا صح

1- W.D. Whiteny : La vie du langage, p. 63-82 et pp. 83-90.

2- W.D. Whitney : ibidem, p 83.

3- Michel Bréal : Essais de Sémantique, Paris, 1896.

4- نضير عبود : جورجي زيدان : حياته، أعماله وما قيل فيه، دار الجيل، بيروت 1983.

التعبير، وفي تطفله على ميدان اللغة كما كان شأنه في أكثر الميادين»[1]. لنلاحظ عبارة «سطحية علمه». فهل كان ينتظر من زيدان غير ما قدمه من أفكار لغوية ممثل لها من اللغة العربية ؟ وهل يتوفر الدرس اللغوي العربي إلى يومنا هذا على دراسة مقارنة تاريخية تامة وشاملة ؟

الواقع أن في هذا الحكم مغالاة وتحاملاً على زيدان لأسباب غير علمية. ومما يؤسف له، أن صبحي الصالح لا يدخل في تقويمه لآراء زيدان السبق التاريخي الذي تحظى به أعمال زيدان، إذ لا يأخذ صبحي الصالح بعين الاعتبار التقدم النظري والمنهجي الذي حققه البحث اللساني منذ بداية القرن العشرين إلى اليوم، ومَكَّنَ العلماء المعاصرين من تمحيص كثير من الآراء المتداولة في إطار المنهج المقارن والتاريخي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كما يتغافل صبحي الصالح حقيقة يتعين ذكرها. إن اللغويين الذين اعتمدهم صبحي الصالح «وكَبَّر جهودهم أمثال الأب أنستاس الكرملي في نشوء العربية ونموها واكتمالها»[2] إنما أخذوا في اعتقادنا، عن جورجي زيدان فيما يتعلق بجذور اللغة العربية[3]وأن أعمالهم في المقارنة والتاريخ لا تختلف كثيرا عن أعمال زيدان ولا تزيد عنها إلا قليلا لا يعتد به.

غير أن فئة قليلة من اللسانيين الجادين أدركت القيمة النظرية والمنهجية لأعمال زيدان اللغوية التي تكشف في نظرهم، عن «ثقافة لغوية ممتازة واجتهاد صادق في تتبع هذا النوع من الدروس التحليلية الخاصة بتفسير التطور اللغوي»[4].

إن مجمل ما تنعت به آراء زيدان من سطحية وأوهام، أو القول إنها تحاليل قائمة على الحدس والتخمين، لا تصدق على أعمال زيدان وحدها، وإنما تصدق أيضا على جل المصادر التي اعتمدها المنهج الذي تبناه، ونعني به المنهج المقارن في اللغة عامة وفي الساميات خاصة. إن ما قد يوصف به زيدان من «عيوب أو تفاهة»، سواء أتعلق الأمر بتصور القضايا المدروسة، أم بالمنهج المعتمد لتحليلها، إنما هي عيوب المنهج

1- صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 11. دار العلم للملايين، بيروت 1960 / 1980 .
2- صبحي صالح : نفس المصدر، ص 11.
3- رياض قاسم : اتجاهات البحث اللغوي في العالم العربي، ج 1، ص 89. مؤسسة نوفل، بيروت 1982.
4- عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوي، ص 78. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1975/1. ط 1985/2

المقارن والتاريخي نفسه. ومعلوم أنه وُجِّهَ للغويات القرن التاسع عشر وبداية العشرين جملة من الأخطاء والعيوب المنهجية والتصورية منها :

ـ البحث في أمور تتعلق بأصل اللغات ونشأتها.

ـ البحث عن اللغة الأم.

ـ تصنيف اللغات على أساس غير موضوعي بسبب التعصب العرقي والديني والقومي[1].

ـ مبالغة رواد المنهج المقارن في تحليل الظواهر اللغوية باعتمادهم كثير من الآراء الساذجة التي تستهدف الوصول إلى إعادة بناء صورة اللغة الأم للغات الآرية[2].

وإذا أدخلنا هذه الأمور في الاعتبار النقدي، فضلاً عن وضعية البحث اللغوي العربي في هذه الحقبة، أمكننا أن ندرك قيمة أعمال زيدان اللغوية التي رغم عيوبها ونقائصها النظرية والمنهجية، لا يمكنها أن تلغي المكانة المتميزة التي يجب أن يحتلها زيدان في مسار الحركة اللغوية العربية الحديثة. إن حقيقة تفاصيل الآراء التي جاء بها زيدان وقيمتها ليست غاية في حد ذاتها. إن ما يهمنا أساسا من آراء زيدان هو الدور «التاريخي» الذي لعبه هذا الرجل الموسوعي في حقبة كاملة من تاريخ الثقافة اللغوية العربية، وذلك ببحثه قضايا اللغة العربية في إطار أحدث المناهج اللغوية المتداولة في أوربا إبان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كما كان تأثيره قوياً في من جاء بعده.

لقد عرفت الثقافة اللغوية العربية في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين كتابات لغوية لا تختلف في شيء عن روح وجوهر كتابات زيدان[3] اللغوية التي قدمنا بعض ملامحها العامة.

تناول جبر ضومط (1859 - 1930) في كتابه «فلسفة اللغة العربية وتطورها» الصادر سنة (1929) « أمرين جوهريين :

1- G. Mounin : Histoire de la linguistique, p 165.

2- R.H. Robins : Brève histoire de la linguistique.

3- يتعلق الأمر بمؤلفات :
ـ جبر ضومط : فلسفة اللغة العربية وتطورها (1929).
ـ أنستاس الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها (1938).
ـ مرجرمي الدومينكي : المعجمية الثنائية في ضوء الألسنية السامية (1937).

ـ الأول أنها (أي اللغة العربية) تغيرت تغيراً كبيراً على ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب، حتى لا يكاد أمي الشام يفهم حديث ابن العراق. إلا أن هذا يكاد يكون مقصوراً في الكلام وقلما يتناول الكتابة.

ـ الأمر الثاني، أنه دخل العربية كثير من لغات الأقوام التي صارت العربية لغتهم أو الذين نقلت العلوم من لغتهم إلى العربية. كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الإسلام، ثم زاد بعد الفتح ونقل العلوم من اليونان والسريانية والفارسية والهندية»[1].

ومن السهل إدراك العلاقة بين كلام ضومط وما ورد عند جورجي زيدان في كتابيه من آراء في الموضوع نفسه. والتشابه قائم بشكل لافت للنظر بدءاً بعنوان مؤلف جبر ضومط.

ونجد صدى لهذه الأفكار (المقارنة ـ التاريخية) عند باحثين آخرين في نفس الحقبة، يؤكدون ما ذهب إليه ضومط، بينما هو كلام صريح عند زيدان في «الفلسفة اللغوية». يقول يعقوب صروف عن فكر جبر ضومط «أثبت ضومط أن اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الأجسام الحية والمتوسطة واعتورها التغيير والتبديل فلا يحتمل أن يمر ألف وأربعمائة سنة تبقى فيها على حالها تماما»[2].

وفي أبحاث الكرملي (1866 - 1947) على نحو ما سنرى في المبحث الموالي بصمات واضحة واستمرار للأفكار اللغوية التي رددها زيدان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

1- أنوار الجندي : العربية بين حماتها وخصومها، ص 186 . القاهرة، دون تاريخ.

2- أنوار الجندي : المصدر نفسه، ص 188.

المبحث الثاني
في تناظر اللغات العربية والإغريقية واللاتينية

3.2- أبحاث الكرملي في تناظر اللغات العربية والإغريقية واللاتينية

يمكن القول إن الأب ماري أنستاس الكرملي (1866-1947) يمثل البداية الثانية بعد زيدان للمنهج المقارن في الدرس اللغوي العربي الحديث. وإذا كان زيدان قد اهتم بالجانب النظري العام للمقارنة، فإن أبحاث الكرملي تعتمد في تحليلها معطيات لغوية من اللغة الفصحى مقارنة بغيرها من اللغات، خاصة منها اللغات الآرية على نحو ما نجد في بحثه في تناظر العربية والإغريقية واللاتينية[1].

1.3.2- نماذج من المقارنة

أ ـ بين العربية والإغريقية

ينطق الكرملي في مقارنته بين العربية واليونانية من رفضه ما أقره أحد اللغويين الفرنسيين في بداية القرن العشرين «من أن ثمة مئات الألفاظ اليونانية (...) لا يعرف لها أصلا أو مقابلا في لسان من الألسن المعروفة[2]. أما الكرملي فيرى أن هذه الألفاظ التي لم يعثر لها على أصل في اللغات الهند ـ أوروبية ذات أصل عربي[3].

يأسف الكرملي لكون جمهور علماء الغرب الذين ألفوا تصانيف مختلفة في مقابلة اللغة اليونانية بما يجانسها من الألفاظ في سائر اللغات يجهل مفردات اللغة العربية. ولو أن «هؤلاء اللغويين الفقهاء عرفوا العربية لاستغنوا عن تلك الآراء الفارغة والمذاهب

1- أنستاس الكرملي : بحثان في تناظر اللغة العربية والاغريقية واللاتينية، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة 1935.

2- Emile Boisaq : Dictionnaire étymologique de la langue grecque étudiée dans ses rapports avec les autres langues indo-européenes, Paris, klincksieck, 1916, (1123 pages).

3- الكرملي : نفسه، ص 269.

التي لا تسمن ولا تغني من جوع»[1]. لهذه الأسباب شرع الكرملي يعارض الألفاظ اليونانية التي لم يجد بوازاق E. BOISACQ لها أصلاً في لغات العالم بما يعتقده (الكرملي) أصلاً لها في اللغة العربية أو على الأقل يشكل المادة الأولى التي تتكون منها.

وفيما يلي أمثلة من الألفاظ اليونانية التي قابلها الكرملي بما اعتبره أصلاً عربياً[2].

ألفاظ بوازاق	مقابلها العربي عند الكرملي
– (Abake) abxans	بك الرجل: افتقر وأحمق بَاكٌ تَـاك وبَائِكٌ تَائِك لا يدري ما خطوه وصوابه ويقال: عَفِكٌ أَبِكٌ أي أخرق

يرى الكرملي أنه مهما كانت التقاليب التي قد تحصل في الكلمة ليس في ذلك إلا «ما يدعم رأينا ويدحض رأي الأجناب أو «الأغراب» وما سردوه لمادتها . فالكلمة إذن من أصل عربي (...) إن مادة (بك) تدل على الفقر، فقر في النطق وفقر في الصدر من الخبث والكذب»[3].

– Baculun : عصا	الباقل. ومنه العي الباقل. والمثل العربي «أعيا من باقل».

– Inbacillus : لا عصا له / أي لامتكأ له، الضعيف.

– abros : الرخو الناعم الغض اللطيف المخنث.

الحَبِرُ : الناعم الغض الجديد. يقال شيء حَبِرُ أي ناعم جديد ومثله الجير والحبر بالكسر أثر النعمة والبهاء والحسن»[4]. و «أصلها العربي «العذي» بالتشديد أو العذي بالتخفيف، ومكان عذ أي طيب وأرض عدية أي طيبة واستعدي المكان استعداء وافقه واستطابه فالعذي الطيب»[5].

1- نفسه، ص 272.
2- الكرملي، نفسه، ص 270.
3- الكرملي، نفسه، ص 270.
4- نفسه، ص 271.
5- الكرملي، نفسه، ص 272.

- Agathos بمعنى جيد وحسن وطيب. «يخيل أنها من القوطية. وقيل أن أصلها غامض. وقال آخرون إنها من السنسكرتية» gadhyah بمعنى طاب وحسن وجاد.

- Aggelos وتلفظ angelos : وأصلها سنسكريتي ومعناها موجود أو كائن إلهي أو خلق روحاني»[1].

«الرسول : في العربية العَجِلُ، فالكلمة اليونانية التي تفيد الرسول والملك أو الروح الذي يعمل بمشيئة الله هي من العربية، لأن الخلق الروحاني أو الملك يعجل في إجراء وتنفيذ أوامر مرسوله. جاء في اللسان «رجل عجل وعجل وعجلان وعاجل وعجل والعجل للسرعة بخلاف البطء فهذا هو أصل الكلمة عندنا»[2].

وينتهي الكرملي إلى أن الكلمات اليونانية التي عرضها في بحثه المقارن «هي تجار عربي صريح النسب. إذن لغتنا وحدها تحل مغلق دقائقها وتؤيد معناها على سر وجودها في تلك الألسنة»[3].

ب ـ بين العربية واللاتينية

وحاول الكرملي أيضا إيجاد الأصل العربي لبعض المفردات اليونانية التي لم يقف بوازاق في معجمه الاشتقاقي على أصلها، ساعيا إلى الكشف عما في اللغة العربية من ألفاظ مجانسة للألفاظ اللاتينية، لاسيما أحادية الهجاء والثنائية منها. ويختصر الكرملي المقارنة بين الألفاظ العربية في الكلمات اللاتينية المبدوءة بصوت /v/ (أي صوت مجهور). ويذهب إلى «أن أصعب ما في اللاتينية أن ننظر إلى الكلم المبدوء بحرف /ف v/ في كلامهم وإيجاد ما يشابهها في العربية»[4].

يذكر الكرملي من الألفاظ اللاتينية المبدوءة بـــ /v/ التي يرى أن لها علاقة باللفظ العربي المفردات التالية :

أ ـ Vabrun ـــــ Vafun : متغير الأشكال ومختلفها، و منه الإنسان المتلون في

1- الكرملي، نفسه، ص 277.
2- الكرملي، نفسه، ص 277.
3- الكرملي، نفسه، ص 277.
4- الكرملي، نفسه، ص 282.

آرائه أي المختال. إن ما يقابل هذه الكلمة اللاتينية هو الكلمة العربية عفري، «أي ريش عنق الديك، إذ إن ذلك الريش يتموج ألوانا مختلفة». وفي «العفري» لغات بمعنى الخبيث والمنكر الداهي والشرير المتشيطن. « والكلمة العربية وردت بمعان الكلمة اللاتينية جميعها فضلاً على أن العربية جاءت بمعناها الأول الذي تفرعت عنه سائر المعاني»[1].

– Vecca : (بقرة) وأصلها العربي «حقه»، ومعناها حسب الكرملي «الناقة» الداخلة في السنة الرابعة. ويقال كذلك «الحق». ثم «إن كثيرا من الألفاظ التي تطلق على البقرة تطلق أيضاً على الناقة وبالعكس»[2].

– Vacerra : (الوتد والعماد) وأصلها في الهندية Veçah، «وهي قريبة من العربية عصا. وأقرب منها اللفظة العامية عصاه»[3].

– Veccillo : و مصدره Vaçillere، «فيكون الفعل العربي عسل بمعنى اضطرب، وهو يعني الفعل اللاتيني أيضا»[4].

– Veco «فرغ – أي خلاء منه Vaccan jareq ساحة فارغة»، وقد تكون Vaco «بك» وبكأ. و«بك» الرجل افتقر وفرغ مما يملك. و«بكأت» الناقة والشاة و«بكؤت» قل لبنها والبئر : قل ماؤها. فكل ذلك من هذا الأصل»[5].

لقد حاول الكرملي في مقارنته بين الألفاظ العربية والإغريقية واللاتينية أن يصوغ بعض القوانين العامة تذكرنا بما فعله المقارنون أمثال كريم وإن لم يبلغ الكرملي درجة تعميمها أن /v/ اليونانية أو الغربية يقابلها الجيم «في العربية وقد تنقل إلى القاف العربية»[6].

ومن ذلك Angelos ——— عجل أيضا، وقد مر بنا تحليل الكرملي وشرحه لمقابلها العربي.

وتظهر المقابلة الصوتية بين العربية واللاتينية أكثر وضوحاً في ذهن الكرملي. فهو

1- نفسه، ص 284.
2- نفسه، ص 284.
3- نفسه، ص 286.
4- نفسه، ص 286.
5- نفسه، ص 287.
6- نفسه، ص 274.

أقرب ما يكون إلى صاحب القواعد العامة المشهور في النحو المقارن جاكوب كريم الذي تعرف قواعد مقابلاته الصوتية بقانون كريم. يقول الكرملي معمماً : « فكل لفظ مبدوء بفاء (أي V في النص) وكان ثنائي الهجاء، فانقله إلى لفظ عربي ثنائي الهجاء. وإذا كان أحادي الهجاء، فانقله إلى أحادية وابدأه بحرف من أحرف الحلق حتى تقوم بين يديك لفظ عربي سوي الخلق بالمعنى الذي جاء فيه اللفظ اللاتيني »[1]. أما الاستثناء لهذه القاعدة «فقليلا ما جاءت الفاء اللاتينية بما يقابلها بالعربية الباء الموحدة»[2].

وإذا اعتبرنا أن أحرف الحلق التي ذكرها الكرملي هي «الهاء» و«الحاء» و«العين» و«الغين»، أمكننا أن نتصور الكيفية التي استنتج بها الكرملي الأصل العربي للكلمات اللاتينية المبدوءة بالفاء، معتقدا بذلك أنه كشف عن صور المجانسة الصوتية بين الألفاظ العربية والإغريقية بشكل منسجم.

- Vabrum وحيث V = ع ـــــــــــ عفري.
- Vacca وحيث V = ح ـــــــــــ حقه.
- Vaçah وحيث V = ع ـــــــــــ عصاه.
- Vaccillo وحيث V = ع ـــــــــــ عسل.
- Vaco وحيث V = ب ـــــــــــ بكاء. بك

2.3.2- القيمة النظرية والمنهجية لأبحاث الكرملي

ما القيمة النظرية والمنهجية لهذه العلاقات الصوتية واللاتينية التي أقامها الكرملي بين الألفاظ العربية والإغريقية واللاتينية ؟ من الملاحظ أن مظاهر القرابة الممكنة بين اللغات الثلاث غير واضحة عند الكرملي، بل على عكس ذلك وردت المقابلات بشكل غير منسجم لا يجمع بينها أي رابط منطقي قابل للتعليل المنتظم والتقعيد المطرد. فلم يربط الكرملي مثلاً بين ما قاله في تفسيره لأصل الكلمة اليونانية[3] abaké وما قاله عن Vaco اللاتينية، حيث قدم الأصل العربي الواحد لكلمتين مختلفتين في اللاتينية والإغريقية.

1- نفسه، ص 283.

2- الكرملي، نفسه ص 283.

3- الكرملي، نفسه، ص 27 و ص 280.

ما تجدر الإشارة إليه، أن مقارنة الكرملي بين ألفاظ لغات تنتمي لفصيلتين مختلفتين لا تقوم على أي سند تاريخي يدعمها. وقد أقرت دراسات لغوية وتاريخية عديدة أن مقارنة من هذا الصنف ضرب من الوهم. يقول الفيلولوجي كارل بروكلمان (1878-1956) : «لم تصل إلى أي نتيجة، تلك المحاولات التي قامت لإثبات العلاقة بين فصيلة اللغات السامية وبعض الفصائل الأخرى، ولاسيما فصيلة اللغات الهندوأوروبية. ولا يهمنا هنا ما إذا كان بين الساميين والهندوأوروبيين أصلاً قرابة من النواحي الجسمية. وإذا ثبت أن كانت بينهما يوما قرابة شديدة، فإن ذلك يعود على أية حال إلى عصور بعيدة جداً، بحيث لم تترك تلك القرابة أي أثر في اللغة»[1].

لتبرير ما افترضه من أصل عربي لألفاظ من لغات غير سامية، ذهب الكرملي إلى القول بالأصل المشترك للغة الإنسان الأول. «إن الأمم كلها ساميها وحاميها ويافيتها كانت يوماً من الأيام مجتمعة في صعيد واحد مختلطة أفرادها بعضهم ببعض وتتكلم وتتفاهم بما يكون لغة واحدة شاملة الجميع. وقد بقيت آثارها من الألفاظ البسيطة التركيبية الأولية محاكاة للطبيعة»[2].

إن رغبة الكرملي في إثبات الأصل العربي للألفاظ اليونانية واللاتينية جعلت كثيراً من تخريجاته المقارنة موغلة في التكلف والتعسف، تخرج عن المألوف والمعروف لدى علماء الساميات والآريات على حد سواء. من ذلك طريقته في الربط بين Vaco والعقوة. «فالفاء هنا أصلها عين وأصلها عقى، و منه في لغتنا عقى الولد سقاه، ما يسقط عقيه أي أفرغ بطنه مما فيه»[3].

وأهم ما تفتقر إليه أبحاث الكرملي في المقارنة غياب الرؤية النظرية والمنهجية المتكاملة الكفيلة بالوقوف على مظاهر القرابة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الآرية إذا كان ذلك أمرا ممكناً طبعاً. ولكي نفترض وجود علاقات معينة بين لغتين أو أكثر ـ مثلما فعل الكرملي ـ ينبغي أن يكون الباحث مزودا بنظرية عامة في المقارنة. يقول أنطوان مايي A. Meillet (1866-1936) : « لكي نستطيع أن نفترض صيغاً أكيدة،

1- كارل بركلمان : فقه اللغات السامية. تحقيق رمضان عبد التواب، الرياض 1908 / 1977.
2- الكرملي : نفسه، ص 280.
3- الكرملي، نفسه، ص 287.

وأن نستخدم على نحو صحيح الوقائع الخاصة التي نجدها في الوثائق القديمة، كما نستخدم الشواهد التاريخية والمقارنات بين اللغات المختلفة (...) لابد من أن تكون لنا نظرية عامة ... يجب أن نكون قد حددنا الطريقة التي يمكن أن تتطور الوقائع اللغوية تبعا لها. إن هذا التحديد غير ممكن ما لم تكن لدينا قواعد للمقابلات العديدة»[1].

لم يعتمد الكرملي من الوقائع اللغوية (الألفاظ) ما يسمح له أن يستنبط القواعد العامة للقيام بمقارنات من النوع الذي قدمه، وإنما اكتفى ببعض المفردات المعزولة عن سياقها والمتشابهة صوتيا بكيفية اعتباطية. ووجود قليل من الكلمات المتشابهة بين إحدى اللغات السامية وإحدى اللغات الآرية لا يدل مطلقاً على وجود صلة أصلية بينهما. وليس وجود كلمة Shesh في اللغات السنسكرتية والفارسية والعبرية للدلالة على العدد ستة»[2] سوى من باب الصدفة. وعلى أي حال لا تسمح مثل هذه المعطيات حتى ولو كانت متوفرة بالقول إن هذه الألفاظ اليونانية واللاتينية من أصل عربي كما فعل الكرملي.

مهما يكن من أمر افتراضاته بشأن أصل بعض الألفاظ الإغريقية واللاتينية، فإن الكرملي بعد زيدان، قد استعان ببعض النظريات اللغوية التي كانت جديدة نسبيا في وقته، في محاولته للنهوض بدراسة اللغة العربية ولهجاتها[3] ، مكملاً في ذلك ما بدأه زيدان في «الفلسفة اللغوية» و«تاريخ اللغة العربية» ومستفيداً من اطلاعه الواسع على كثير من اللغات السامية والآرية ورحلاته المتعددة إلى الديار الأوربية[4].

وبذلك يكون الكرملي قد مهد الطريق لجيل جديد من الباحثين المقارنين العرب، فاتحا أبواب هذا النوع من المقارنة القائمة على افتراض اللغة العربية أصلاً، سواء بالنسبة لأخواتها السامية كما عند إبراهيم السامرائي[5]، أم بالنسبة للغات أخرى غير

1- انطوان مايي : علم اللسان، في منهج البحث واللغة، ص 169، ترجمة محمد مندور، بيروت، ط 1982/2.
2- أ. ولفنسون : تاريخ اللغات السامية، ص 18/17. دار القلم، بيروت 1914 / 1980.
3- محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، هامش ص 21، القاهرة 1962.
4- حكمت رحماني : الرسائل المتبادلة بين أحمد زكي والكرملي، ص 148 (حققها وعلق عليها) مجلة المورد، المجلد IV عدد 2، صيف 1977. بغداد.
5- ابراهيم السامرائي : فقه اللغة المقارن، بيروت 1968، ودراسات في اللغتين السريانية، دار الجيل، عمان، 1985.

السامية كما هو الشأن ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بالنسبة لكتابات عبد الحق فاضل في «مغامراته اللغوية»، وعبد العزيز بن عبد الله في مقالاته العديدة[1].

3.3.2- العربية أم اللغات

يُعَدُّ عبد الحق فاضل من أبرز الدارسين العرب الذين حاولوا تطوير الملاحظات التي بدأها الكرملي المتعلقة بالتجانس الصوتي بين الألفاظ اليونانية والعربية. وتقوم المقارنة عند فاضل بين العربية واللاتينية وغيرها من اللغات السامية والآرية على أساس علمين متميزين :

أ ـ **علم الترسيس** : وهو «إرجاع اللفظة العربية أو الأعجمية إلى رسها أي بدايتها (...) في صورتها التي نطق بها مع تعقيب المراحل التطويرية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها بها في إحدى اللغات»[2].

ب ـ **علم التأثيل** : (علم أصول الألفاظ Etymologie) «ويبحث عن الأصل الذي تأتت منه كل لفظة في المعجم من لفظة أخرى من لغة أخرى على الأغلب»[3].

في إطار مباحث علم الترسيس، يذهب المؤلف أبعد من الكرملي معتبرا «أن العربية هي أم اللغات الآرية بالإضافة إلى اللغات الحامية السامية»[4]. ويعتقد صاحب «المغامرات اللغوية» أن وقوف اللغويين الأوروبيين عند حدود علم تأثيل اللغات الأوروبية جعلهم لا يعرفون حدودا أبعد منها. وبتعبير آخر، لا يعرفون اللغة الأم التي انحدرت منها الألفاظ الآثلة، وبتعبير ثالث، لأنهم لم يتعمقوا في درس العربية[5]. وبفضل علم الترسيس يمكن ـ في اعتقاد المؤلف ـ أن نجد التفسير الوحيد لظاهرة تشابه الألفاظ السنسكرتية في جذورها الثنائية مع الألفاظ اللغوية العربية»[6].

يقدم المؤلف جملة من الكلمات الأوروبية التي يَعُدُّها ذات أصل عربي. «لنأخذ

1- نشر عبد العزيز بن عبد الله معظم مقالاته في مجلة «دعوة الحق» المغربية وفي مجلة اللسان العربي/ الرباط ومجلات عربية عديدة.

2- عبد الحق فاضل : مغامرات لغوية، صص 205 - 206، دار العلم للملايين، بيروت. د.ت.

3- االمصدر نفسه، ص 203.

4- نفسه، ص : 9. وص 206.

5- نفسه ص : 206.

6- المصدر نفسه، ص 190.

كلمة واحدة من الكلمات المشتركة وهي (الأداء) أو (التأدية) من فعل (أدى)، وهي في الفارسية «داد»، أي أعطى، وفي اللاتينية addo و datio و dano، و منها في الإيطالية dato، و من صورها في الفرنسية donner و donation و date (...) إن كلمات العطاء هذه الموزعة على عدة لغات أصلها عربي قح»[1].

ويرى عبد الحق فاضل أن الكلمات الإغريقية التالية : muthos و historio و aster و acchne لها أصل عربي هو على التوالي المفردات الآتية : المثلة، وأسطورة (وأسطيرة) وعشتار والتقن[2].

وبالمثل فإن الكلمات : Solidus و ululo و capesso و tabum و Cesius يقابلها في اللغة العربية على التوالي المفردات : الصلب (والصلد والصلود) وولول وقبض وطاعون وجني[3]. والألفاظ الإنجليزية التالية that و cut و earth و tall و Wine لها تباعا ما يقابلها من ألفاظ في اللغة العربية وهي : ذاك وقط، (أي قطع) وأرض الطول (الطويل) وين (عنب أسود)[4].

إن التفسير الوحيد لأصل هذه الألفاظ الآرية في نظر صاحب المغامرات اللغوية يبدو مقبولا عقليا ومنطقيا في ضوء الافتراض الذي قدمه المؤلف والقائل «بهجرة العرب على إثر جفاف جزيرتهم إلى الهند وغيرها، حيث استقروا واستقرت لغتهم»[5].

وتقود المقارنة صاحبها إلى آراء مثيرة لم يقل بها أحد قبله، ومنها «أن الضمائر في اللغة الصينية عربية الأثل الأصل» (...) يضاف إلى ذلك ـ في زعم المؤلف ـ «أن في الصينية ألفاظاً عربية أخرى غير الضمائر، ولعلها لو تيسر درسها لتبثت أمومة العربية لها على نحو أكثر صراحة وأبعث للثقة»[6].

ومن آرائه الغريبة أيضا في مجال المقارنة اللغوية ذهابه إلى القول إنه «يحق لنا بنفس

1- المصدر نفسه، صص 179 ـ 180 .
2- المصدر نفسه، ص 184.
3- نفسه، ص 185.
4- نفسه، ص 185.
5- نفسه، ص 200.
6- نفسه، ص 333 و 365.

الأسلوب أن نسمي السنسكرتية باللغة العربية / الهندية. و «أما اللغات الأوروبية التي سموها الهندية ـ الأوروبية، فلعله قد آن أوان تعديل تسميتها، لتطابق واقع التاريخ، فيكون اسمها الصحيح منذ اليوم هو اللغات العربية ـ الهندية ـ الأوربية»[1].

في نفس الاتجاه والتحليل وبنفس الأفكار والمنطلقات بحث عدد من اللغويين العرب العلاقة بين العربية وبعض اللغات الآرية كالألمانية والإنجليزية. وانتهت بعض الأعمال اللغوية المقارنة إلى القول إن حوالي 147 كلمة ألمانية (أسماء وأفعال وحروف) هي من أصل عربي. «إنها كلمات عربية قح إلى درجة مفرطة»[2].

كما حاول عبد العزيز بن عبد الله إعادة جملة من المفردات الإنجيليزية إلى جذورها العربية[3].

1- نفسه، ص 200.

2- عبد الرازق الحميري : الصلة بين العربية والألمانية. مجلة المورد، مجلد IV عدد الأول 1975، بغداد.

3- عبد العزيز بن عبد الله : الدلالاتية المقارنة في خدمة تاريخ الحضارة المقارنة، اللسان العربي، عدد 23 سنة 1984. ص 156 - 180، مكتب تنسيق التعريب. الرباط.

الفصل الثالث

نحو رؤية ارتقائية للغة العربية

3- الرؤية الارتقائية للغة العربية

تناول المنهج التاريخي منذ أن شرع بعض اللغويين العرب المحدثين في تطبيقه على العربية قضايا عديدة نجملها فيما يلي:

أ- نشأة اللغة العربية وتطورها في التكوين عبر مراحل وأدوار.

ب- الأصل الثنائي للكلمات العربية.

ج- تطور دلالة المفردات والأساليب العربية عبر العصور المختلفة.

د- تطور اللهجات العربية قديمها وحديثها وعلاقتها باللغات السامية، من جهة وبالعربية الفصحى من جهة ثانية.

ونظرا لتشعب القضايا وتفرعها إلى موضوعات ليست من صميم بحثنا مباشرة (كتطور اللهجات وتطور الدلالة والأساليب)، سنكتفي بتحليل عام للقضيتين أ و ب، باعتبارهما شكلتا محورا أساسيا في الكتابة اللغوية العربية التاريخية منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم، ولأن هذه الموضوعات التي تناولها اللغويون العرب لم تكن بعيدة في جوهرها عن القضايا التي تناولها المنهج اللغوي التاريخي في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

1.3- نشأة اللغة وأدوار تطورها

سبقت الإشارة إلى أن كتابات زيدان والكرملي وجبر ضومط بحثت إشكالية «أصل اللغة الإنسانية ونشأتها». غير أن هذا الموضوع أصبح محوراً أساسيا في العديد من كتابات اللغويين العرب في بداية القرن العشرين. ويُعْتَبَرُ ما قام به عبد الله العلايلي (1914-1996) دراسته «مقدمة لدرس لغة العرب»[1] أكثر المحاولات تميزا وشمولية بالنسبة لموضوعنا.

ويعد هذا العمل في نظر الباحثين العرب أنفسهم محاولة جريئة[2] «تُصَوِّرُ خط التطور في تاريخ اللغة العربية يتسم بالدقة والطرافة»[3].

1- عبد الله العلايلي: مقدمة لدرس لغة العرب أو كيف نضع المعجم الجديد، القاهرة، الطبعة العصرية بالفجالة (1938).

2- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية ص 96، (1958).

3- عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي، ص 99، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 2 / 1985 (1975) و انظر فيه عرضا نقديا لمحتويات «مقدمة» العلايلي (ص 93 - 103).

1.1.3- أصل اللغة الإنسانية[1]

بالرغم من أن البحث في نشأة اللغة عديم الجدوى باعتباره ضرباً من التخمين و الحدس، فإن مقدمة العلايلي تتحدث بنوع من الإسهاب عن هذه الإشكالية على غرار ما فعل اللغويون الأوروبيون بالنسبة للغات الهندية ـ الأوروبية في إطار المنهج التطوري ـ المقارن.

لقد بدأت اللغة عند الإنسان حين شرع هذا الأخير «يلهج بأصوات غير متشكلة، أي أنها لم تنطبع بطابع خاص يميزها، بل كانت جارية مجرى الأصوات التي يقال لها الاضطرارية المتولدة عن الانفعالات، ولا تتمايز فيها المقاطع كالأنين والعنين والأحيح، وهي أصوات المتوجعين والمغمومين، والهمهمة وهو الصوت الحاصل من تردد الزفير هَمّاً أو حُزْنا، والزفير وهو خروج النفس بشدة عند عمل شاق والنحيم والنهيم وهو الأنين المركب الذي يخرجه المكدود»[2]. وتطورت هذه الأصوات وترقت لتنتظم في أغراض ثابتة تولدت عنها أصوات لا تزال موجودة في كل اللغات. وتأثرت لهجة الإنسان الفطري بصوت الطبيعة في نفسه وفي المواليد الحية والنامية والجامدة. وكان من نتيجة هذا التأثر، أن تولدت أصوات كلمة مشكلة اللغة الفطرية الأولى عند الإنسان المكونة من مجموعة من الحروف الصوتية التي توصل إليها الإنسان الأول بالمصادفة والمحاكاة والتقليد (أي إرادة المحاكاة). «إن الدور الفطري في غايته أدى إلى هذه الحروف، حروف الهجاء بأصواتها لتمثل دلالات ثابتة تختلف باختلاف الصوت مع الحرف»[3]. وشكل التوصل إلى الجدول الهجائي في نظر صاحب المقدمة «الطرف الأقدم من لغة الإنسان الأول التي هي أم اللغات التي لم تزل سراً مغلقاً في مباحث علم اللغة المقارن»[4]. وتحتفظ بعض اللغات ببقايا من هذا الدور الفطري كما هو الشأن بالنسبة للغة التركية «التي تمثل طفولية لم تسوها مراحل العمر»[5].

وبذلك يكون المقطع الصوتي الأحادي أساس اللغات المتمثل في حروف الهجاء

1- المقدمة : ص 126 وما بعدها بقليل من التصرف.
2- المقدمة : ص 126 وما بعدها بقليل من التصرف.
3- نفسه، ص 129.
4- نفسه، ص 127.
5- نفسه، ص 129.

بأصواته المختلفة ذات الدلالة المختلفة. وإذا اعتمدنا الجدول الأبجدي في تحليل الكلمات، نجد أن «كلمة شجر تُحَلُّ إلى (ش) ومعناه سن وهو ينظر إلى مطلق النبات، و(ج) ومعناه جمل، وهو ينظر إلى مطلق الارتفاع، و(ر) ومعناه رأس. والمعنى المؤلف (نبات مرتفع له رأس) وهو تماماً معنى الشجر»[1].

و تحل «كلمة» جبل «إلى (ج) ومعناه ينظر إلى الارتفاع، و(ب) ومعناه بيت. (ل) ومعناه الملاصقة والمساس. والمعنى المؤلف (بيت مرتفع ملاصق وكأنه للسحاب أو للأرض»[2]. وكلمة «جمل» التي تحل إلى (ج) ومعناه الارتفاع و(م) ومعناه المياه وهو نظر إلى السحاب و(ل) ومعناه الملاصقة أو المساس. والمعنى المؤلف مرتفع يلامس السحاب»[3].

تلك صورة لغة الإنسان الفطري التي شكلت الدور الأول من حياة ونمو اللغة عند الإنسان الأول. لكن ما الأدوار التي قطعتها اللغة الإنسانية ؟ ذلك ما يشرحه العلايلي فيما يلي :

2.1.3- أدوار اللغة وحلقات ارتقائها ونموها

مرت اللغة عند الإنسان بأطوار مختلفة توضح «أدوار النشوء في بناء هيكل على سنة تدريجية غير آخذة سبيلا من الطفرة، أو قائمة على أسس المفاجآت المحضة». هكذا مرت جميع اللغات منذ نشأتها في أدوار ثلاثة[4] :

أ ـ **دور المقطع البسيط** ـ كما هو الأمر في لغة الإنسان الفطري التي تم تقديمها. في هذا الدور ظهرت «المقاطع الواحدية مثل (ba) المجموعة في حروف الهجاء، أو ما سمي بالجدول الهجائي بأصواته المختلفة (الحركات في العربية). وكان كل صوت يدل دلالة بعينها». فمثلاً (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية و(وا) يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين، وعنه نشأت (وو) في العبرية بمعنى «وصل».

1- نفسه، ص 130.
2- المصدر نفسه، ص 130.
3- المصدر نفسه، ص 130.
4- نفسه، ص 123 بقليل من التصرف.

ب ـ دور المقطعين ـ أي الحرفين بصوتين والحرفين بصوت واحد. «وقد نشأ هذا الدور مصادفة وبمحاكاة الطبيعة في مختلف أصواتها (....).» وفي «آخرهذا الدور أصبح بإمكان الإنسان أن يؤلف بين مقطعين. مثلاً، لما أراد التعبير على أن الحيوان يعوي، عمد إلى حرف العين ذي الصوت المضموم أي (عو) الذي يدل على الحيوان المفترس وإلى حرف الواو ذي الصوت أي (وا) الذي يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين فدغمهما وتوصل إلى (عووا) بمعنى حيوان يصوت أو يواصل التصويت»[1].

د ـ دور المقاطع، حيث كان الإنسان في حاجة إلى الجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية والمقاطع الثنائية ويؤلف منهما دلالة مركبة وهكذا. في هذا الدور مثلاً اتخذت العربية وحدتها واستقرت في الثلاثي[2].

وتمثل هذه الأدوار الثلاثة العهد الأول، «وفيه وقفت لغات وأميتت لغات، ونشطت لغات وهذه وحدها هي التي ألفت العهد الثاني، عهد اللغات المرتقية».

ويقسم الدور الثالث إلى خمس حلقات :

ـ **الحلقة الأولى** : حيث كانت اللغة بسيطة توازي مستوى التفكير الإنساني نفسه. وامتدت هذه الحلقة إلى آخر العصر «البرونزي»، وتم فيه للإنسان وضع الحجر الأساس في بناء الحضارة. وتتكون هذه الحلقة من المواد اللغوية التالية :

ـ المفردات ذات المقطع الواحد (وهي الجدول الهجائي فيما بعد).

ـ المفردات ذات المقطعين وهي المعلات في دور النضوج اللغوي.

ـ المفردات ذات المقاطع، وهي التي انتهت كوحدة في اللغة العربية تنحل إليها كلمات اللغة وتصدر عنها. وهذه المفردات الأخيرة كثيرة جداً. وكان من وجوه كثرتها كون المفرد الواحد ينطق على أشكال مختلفة لتأديات مختلفة أيضا» [3].

ـ **الحلقة الثانية** : وتصادف العصر الحديدي في تاريخ الحضارة الإنسانية، حيث عرف الإنسان استخراج الحديد وشاد المدن وقطع أشواطاً في الحضارة وبدأ عهد

1- المصدر نفسه، ص : 124 .
2- المصدر نفسه، ص : 124.
3- المصدر نفسه، ص : 139.

المدنيات العظيمة. وتعتبر الحلقة الثانية الخطوة الأولى لانتظام اللغة وارتقائها على آلية مستقيمة[1]. ولم تعد اللغة تعتمد الطبيعة في تسمية الأشياء، بل أصبحت تلجأ للتأليف تارة، وللتركيب تارة أخرى بحسب الحاجة. في هذه الحلقة أيضا أصبح يفرق بين الثلاثي الذي كان في الحلقة السابقة عبارة عن تركيب مؤلف من ثلاث كلمات، فلم يكن مفردا في مفهومه. أما في الحلقة الثانية، فقد أصبح «عبارة عن مؤلف حرفي لا دلالة لحروفه على الانفراد».

ـ **الحلقة الثالثة** : حيث انتقلت اللغة إلى عمل وضعي منتظم وتم «معرفة الاسم والفعل (منزلة الوصف) والحرف المهمل دون الحرف الذي جاء لمعنى». في هذه الحلقة، اهتدت اللغات «للزيادة»، مما مكنها من تكاثر المفردات على شاكلة بعينها، إذا أصبح للزيادة «محل» لا يتخلف هو، إما أول الكلمة وإما وسطها وإما آخرها .

ـ **الحلقة الرابعة** : وتشكل أخطر مرحلة في اللغة، وهي مرحلة «القلب»، تمكن فيها الإنسان من تنظيم قاعدة المقاليب مما جعله قادرا على «توليد ستة مواد لكل ثلاثي متخذة تولدا على مثال تولد الكائن الحي والناموسي العام. وتقضي قاعدة القلب وجود مانع معنوي بين التأليف الستة. وهذا أصل نشأة الثلاثي.

ـ **الحلقة الخامسة** : هي مرحلة المكملات كالاستعانة بحروف الجدول الهجائي لصيغ الثلاثي كوحدة للمعنى، بحيث تصبح قابلة لعدة معان. وقد عرفت العربية في هذه الحلقة الزيادات الصرفية، فجعلت موضعها في أول الثلاثي[2]، ثم تولد الرباعي والخماسي، لكن في تعاقب ولحاجة ماسة. و تم التوصل إلى الرباعي بالتكرار وهو الرباعي غير الأصم كذبذب المستحدث من الثنائي رأساً (...) للدلالة على المعاني التركيبية في صورها البسيطة كالحركات العكسية السريعة على المكان الواحد»[3].

3.1.3- العهد الصوتي والعهد اللفظي للغة العربية

مرت اللغة العربية بعهدين كبيرين :

ـ العهد الصوتي حيث كانت العربية فيه تقوم أساسا على الحروف.

1- المصدر نفسه، ص 140.
2- المصدر نفسه، ص 152.
3- نفسه.

ـ العهد اللفظي، وفيه كانت تقوم على الحركات.

أ ـ العهد الصوتي وأدواره

ما تتميز به اللغات من سمة الصوتية «دور طبيعي لابد لكل لغة أن تجوزه. ويظهر أكثر ما يكون على اللغات الدنيا في سلم الارتقاء»[1] وقد مرت اللغة العربية في أدوار مغرقة في الصوتية قبل أن تصبح لغة لفظية تماماً. والعهد الصوتي ثلاثة أدوار :

ـ الدور الأول : ويبدأ بالمرحلة الأولى من الدور الثالث الذي سبق الحديث عنه. ومن أهم مميزاته :

ـ نطق كل حركة حرفا. وفي العربية كلمات ترجع إلى هذا الدور من العهد الصوتي كما في شمأل بمعنى شمال»[2].

ـ الابتداء بالساكن والانتهاء بالمتحرك. من مخلفات الظاهرة الأولى في العربية وجود بعض الألفاظ التي كانت تنطق ساكنة الأول مثل «اجميل» و«خريط» و«اعشوشب» وما إلى ذلك، ثم في تطورات أخرى أضافوا الهمزة توصلاً إلى النطق بالساكن. وكذلك الأسماء الإثنا عشر التي حفظت بهمزة الوصل كالاسم وامرئ إلخ، وهي كما نظن أثرية عن سكون الأول»[3]. ومن بقايا الانتهاء بالمتحرك «احتفاظ لفظ (عمرو) بالواو في إملائيته»[4] وظاهرة الروم في العربية.

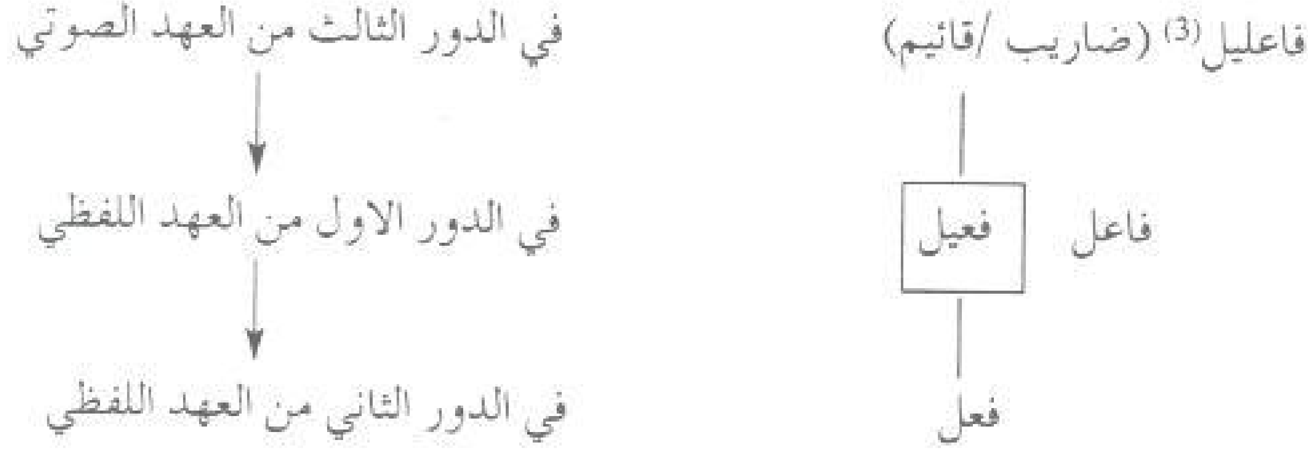
ـ النطق بالساكنين المتعاقبين وهي ظاهرة أصبحت محذورة في الأدوار الأرقى من حياة اللغة[5].

ـ **الدور الثاني من العهد الصوتي** : وفيه ظلت العربية محركة الآخر ولم تتحرر تماما من التقاء الساكنين . وبقيت الحركة تنطق حرفا في كثير من مواضع الكلمة[6]، ثم سارت العربية في الدور الثالث من العهد الصوتي وقد خلصت من حركة الآخر، وبدأت تستعد لتجربة الإعراب التي بلغتها في أخريات الدور الثالث.

ـ **الدور الثالث** وبقاياه كثيرة أهمها، بعض الصيغ مثل ينبوع، ويربوع ويأجوج

1- نفسه، ص 159.
2- المصدر نفسه، ص 160.
3- المصدر نفسه، ص 160.
4- نفسه، ص، 161.
5- نفسه، ص 160.
6- نفسه، ص 164.

ومأجوج وانظور ويسروع ويعسوب ويعقيد ويعضيد[1]. ومن بقاياه أيضا، وزن فاعيل (اسم فاعل) الذي قال عنه بعض اللغويين أنه ليس من أبنية العربية على وزن قابيل وهابيل[2].



(رسم رقم : 1).

على نفس المنوال تطورت بعض الأوزان مثل[4] :



(رسم رقم : 2).

ب ـ العهد اللفظي

بلغت اللغة العربية الشوط الأخير من الترقي وإن لم تستقر تماما، لأن الدور الأول من العهد اللفظي لم ينه عمله فيها ولم يتم إخضاع اللغة العربية برمتها لقانون اللفظية، فبقيت صوتية في أنحاء مضطربة في عدد من الموازين. لكن أهم عناصر التهذيب كانت قد تمت فيها، ومع ذلك لم تبلغ بعد نضجها على الوجه السوي.

أما الدور الثاني ـ وهو تكميلي للأول ـ «فمن جملة ما أدى إليه (هذا الدور)

1- نفسه، ص 166.
2- نفسه، ص 169.
3- نفسه، ص 170.
4- نفسه، صص، 170 ـ 171.

التخفيف بالإسكان حتى كان قانوناً شائعا عند العرب[1]»، وتم الانتقال فيه بكل حرف مع الاحتفاظ بالتأدية نفسها داخل نفس الوزن أو مع اعتبار تغيير بسيط[2]. ومن أمثلة ذلك :

ـ (فَعِلْ) من (فاعل) أو (فعال) كفارح وفرح.

ـ و (فَعَلْ) من (فاعل) أو (فعال) كملك وملاك[3] ....

بهذا الدور «كان ختام اللغة، مع بقاء شيء من مظاهر الطفولية اللغوية، اجتهدت العربية بالتخلص منه، وبقي على صوره هو التقاء الساكنين»[4].

تلك إذن صورة لمظاهر تطور اللغة عامة والعربية خاصة ومرورها في أدوار وحلقات وعهود. وقد توقف التطور في العربية بمجيء القرآن دون أن يتم النمو التام في الصيغ الدلالية والموازين الصرفية، مما يتعين على الواضع الجديد المهتم بمعجم العربية ونحوها أن ينتبه إليه ويدركه[5].

3-2- الأصل الثنائي للغة العربية

من أهم الافتراضات التي قدمها اللغويون الارتقائيون العرب المتعلقة بنشوء اللغة العربية وتطورها القول بالأصل الثنائي للألفاظ العربية. «إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية»[6]. وترتبط فكرة الثنائية بالبحث في أصل الألفاظ العربية. أكانت الألفاظ في أول وضعها على حرفين أم على ثلاثة ؟ كيف (تم) الانتقال من الثنائي إلى الثلاثي وغيره ؟

يرى أصحاب هذه النظرية ـ من اللغويين العرب ـ أن الألفاظ العربية ثنائية الأصل، تطورت إلى أن أصبحت على ثلاثة أحرف. وحصل الانتقال من الثنائي إلى الثلاثي برقي اللغة نفسها وحاجة المتكلمين إلى التمييز بين المعاني المتعددة. «إن طريقة الاشتقاق والتوسع في الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص إلى الأكثر والأكمل، أي حسب السنة الطبيعية، سنة الرقي وليس بالعكس إلا من باب الاختزال وهو نادر ولا

1- نفسه، ص 177.
2- نفسه، ص 177.
3- نفسه، ص 177.
4- نفسه، ص 177.
5- نفسه، ص : 193.
6- زيدان الفلسفة اللغوية، ص 31 وكذلك ص 72، ص 85، ص 100.

يحدث في طور التكون والنشوء، بل في عصر الكهولة والهرم[1]. ويذهب العلايلي ـ كما مر بنا ـ إلى أن الكلمة العربية انتقلت من الثنائي إلى الثلاثي في نهاية الدور الثاني.

ويميز بين الثنائية التاريخية والثنائية المعجمية. فالأولى تَرُدُّ اللغات في مرحلتها الأولى إلى أصول ثنائية تتكون من مقطع واحد مكون من صوتين بسيطين: متحرك وساكن يحاكي أصوات الطبيعة ثم يلحق بها حرف أو أكثر في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها. وبهذه الطريقة نشأ الثلاثي والرباعي وباقي المزيدات. وانتقلت هذه الفكرة المتعلقة بثنائية الألفاظ لتصبح أساس البحث في المعجم العربي الحديث وهو ما يعرف بالثنائية المعجمية[2].

1.2.3- مبادئ الثنائية

تقوم الثنائية على المبادئ التالية :

ـ **المبدأ الأول** : إن نشأة الأصوات اللغوية تمت بمحاكاة الإنسان أصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة والأصوات التي تحدثها أعمال الإنسان المختلفة. والأصول اللغوية «معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزياً[3]».

واعتبر بعض اللغويين العرب المحدثين أن «خير ما يقال في أصل اللغة» هو النظرية القائلة بمحاكاة أصوات الطبيعة. يقول أحمد رضا : «الذي يمكن أن يستقر عليه الرأي من تلك الأحوال، ومن القياس على الاشتباه والنظائر، أن اللغة نشأت متدرجة من إيماء وإشارات إلى مقاطع صوتية على أبسط ما تكون، وفيها تقليد وحكايات الأصوات الطارئة على سمع الإنسان، طبيعية كانت أو غير طبيعية، مختلفة باختلاف المناسبات أو المرتجلة من القوة والضعف والقرب والبعد»[4]. على أن بعض القائلين بالثنائية أمثال المرمرجي الدومينيكي، ينكر وجود هذه العلاقة الطبيعية بين الصوت والمعنى[5].

1- مومرجي الدومينيكي : الثنائية اللغوية والألسنية السامية، ص 376، مجلة مجمع اللغة العربية، عدد 8 / 1952. القاهرة.

2- رياض قاسم : اتجاهات البحث اللغوي في الوطن العربي : لبنان، جزء 2، ص 79، بيروت 1982. وصبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 148، دار العلم للملايين، ط 2 / 1981 (1960).

3- جورجي زيدان : الفلسلفة اللغوية، ص 100.

4- أحمد رضا : أصول اللغة، ص 42، قدم له وعلق عليه نزار رضا، دار الرائد العربي، بيروت 1983. والدراسة موجودة في مقدمة معجم متن اللغة لأحمد رضا. 5 مجلدات، دار الحياة، بيروت 1958.

5- المرموجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 376.

ـ المبدأ الثاني : إن المواد اللغوية نشأت في أول أمرها ثنائية يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق، أي من حرفين أولهما متحرك حركته قصيرة، وثانيهما ساكن، وأن سُنةَ التطور هي العامل الفعال في تعديل المادة الثنائية من جهة، وفي جعلها من ثلاثة حروف أو أكثر[1].

كان زيدان والكرملي والمرمرجي قد عبروا عن نفس المبدإ. يقول الكرملي: «الكلم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة»[2]. ويقول المرمرجي الدومينيكي» وكل حرف زيد على الأصل الثنائي يجري على قانون التطور اللغوي تتويجاً أو إقحاماً أو تذييلاً مع بقاء اللحمة المعنوية بين الثنائي والثلاثي كما هي مستمرة بين الثلاثي والرباعي وما فوقه من المزيدات»[3].

ـ المبدأ الثالث : إن الانتقال من الثنائي إلى الثلاثي كثيراً ما يكون بتضعيف الحرف الثاني بإضافة حرف علة أو حرف من حروف الذلاقة أو أحرف الحلق أو أحرف السفير»[4]. وقد يتكرر الأصل الثنائي« بكل حرفيه، فنفصل على الرباعي المضاعف» أو ما سمي بالثنائية المكررة[5]. وذكر بعضهم أزيد من مائتي فعل ثنائي مضاعف بالتكرار مثل غمغم وقهقه وكركر وأشباه ذلك[6].

ويختلف أصحاب النظرية الثنائية في تحديد موضع الزيادة. فقد حدده زيدان في آخر الكلمة. «فمن قطا يولد قطع قطب قطف (...) ومن قص يولد قصح قصل قصب قصر وقصف، ومن قضى قضم وقضب وقطع»[7]. بينما يرى العلايلي أن موضع الزيادة «هو الوسط دائماً في غير ما يكون حلقياً من المواد (...) فقطف ترجع إلى قف»[8].

1- حامد عبد القادر : ثنائية الأصول اللغوية. مجلة مجمع اللغة العربية، عدد 11 ص، 113 القاهرة.
2- الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، ص 1.
3- المرمرجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 382.
4- حامد عبد القادر : المصدر المذكور، ص 113.
5- صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 147 وكذلك محمد السيد علي بلاسي : الثنائية أصل للغة، اللسان العربي، ص 30 عدد 29 / 1987.
6- روفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية، ص 44 ـ 49، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط 2 ـ 1960، (ط 1 / 1954).
7- جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 76 و ص 190.
8- ع. العلايلي : مقدمة لدرس اللغة العرب. ص 144.

ويرى غيرهما كالكرملي والمرمرجي أن الانتقال من الثنائي إلى الثلاثي يجري «بزيادة حرف ثالث عليهما، إما تتويجاً، وإما إقحاماً، وإما تذييلاً»[1].

2.2.3- مصادر الثنائية قديما وحديثا

أ ـ قديمـا

لسنا في حاجة إلى التأكيد على أن التصور الثنائي لجذر الكلمات العربية يقوم على القول بالعلاقة الطبيعية بين الصوت والمعنى وهو ما يصب مباشرة في الافتراض القائل إن أصل اللغة إنما هو محاكاة لأصوات الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن جني في الخصائص. وكما قال القدماء بالثنائية التاريخية، تنبه بعضهم إلى الثنائية كأساس لترتيب مفردات المعجم. يعترف العلايلي أن الثنائية المعجمية واضحة عند بعض القدماء. يقول : و«لابأس من أن ننوه هنا بأن صنيع الجوهري في بناء معجمه (الصحاح) على ملاحظة لام وفاء الكلمة هو الذي ألفتني إلى هذا الرأي، وأنبهني إلى هذا الظن، وإن كان ليس مبنى ملاحظة الجوهري أصلاً وإنما ملاحظته معجمية فقط»[2].

وثمة طائفة أخرى من اللغويين العرب القدامى الذين قالوا بالثنائية. من هؤلاء : «الراغب الاصفهاني (ت 502 هـ). في «غريب القران» والبيضاوي في «أنواع التنزيل»، وابن منظور (630 هـ ـ 711 هـ) في معجمه «لسان العرب» والزبيدي (1145 هـ ـ 1205 هـ) في قاموسه «تاج العروس»[3]. ويضاف إلى هؤلاء ابن دريد في «جمهرته»[4].

والحقيقة أن المصادر العربية القديمة واضحة الأثر في الكتابات المتعلقة بالثنائية المعجمية منها والتاريخية. إن عمل العلايلي ـ وهو أبرز من بحث في الثنائية نظرياً وتطبيقاً ـ يقوم أساساً على «مفهوم الاشتقاق الكبير عند القدماء»[5]. غير أن اللغويين العرب المحدثين القائلين بالثنائية أمثال الشدياق واليازجي وزيدان والكرملي والعلايلي والمرمرجي وأحمد رضا ورفائيل نخلة وغيرهم أضافوا شيئاً جديداً للمصادر اللغوية

1- المرمرجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 182.
2- عبد الله العلايلي : المصدر المذكور، ص 145.
3- محمد توفيق شاهين : أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية، ص 12.
4- محمد السيد علي البلاسي : الثنائية أصل اللغة، اللسان العربي، ص 30، عدد 29 / 1987 الرباط.
5- عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوي، ص 99.

القديمة. لقد حاولوا في بحوثهم ربط إشكالية الثنائية بالبحث التاريخي التطوري والارتقائي لبنية الكلمة العربية متأثرين بنظرية داروين الشهيرة في **أصل الأنواع** (1859). في هذا الاتجاه بحثوا «الصلة بين هذه الكلمات الثنائية كيف تطورت حسب قوانين التطور الصوتي وهذا هو الأجدى في هذه الدراسة»[1].

ب ـ حديثا

طعم اللغويون العرب المحدثون بحوثهم في الثنائية التاريخية والمعجمية بالاطلاع الواسع على بعض المصادر اللغوية الغربية. فقد اهتم بهذه القضية اللغوية كثير من اللغويين الغربيين مثل «جزينيس وفورست وبروكلمان ونولدكه ومنهم بعض علماء اليهود مثل جورج ليفنسون وسالومن بابنهاين وإسحاق ليفنسون وجورج ستانبيرغ وفريق من الفرنسيين أمثال رينان وكازه»[2].

ونلاحظ أن معظم هؤلاء من كبار اللغويين المقارنين أمثال بوب وكريم. يقول ابراهيم أنيس : «إن فرانزبوب نادى بأن الجذر الأصلي لكل الكلمات القديمة في نشأتها كانت أحادية المقطع، وأنه تطور بتوالي العصور إلى ثنائي المقطع وثلاثي المقطع حتى صارت الكلمة على المألوف لدينا الآن»[3].

ويفترض كريم أن وجود المقطع الأحادي في اللغات الإنسانية يرجع إلى عهود قديمة في نمو وتطور اللغات البشرية. إن الدور الأول في نشأة اللغة هو حالة المقطع الأحادي أي الدور الذي يمثل العهد الأول في اللغة. وَتُعَدُّ اللغة الصينية نموذجا لهذا العهد[4]. ويرجح أن أصل اللغة البشرية كان على هذه الشاكلة[5].

لاشك أن مثل هذه الأفكار واردة بوضوح عند زيدان والعلايلي في «الفلسفة اللغوية» وفي «المقدمة»[6] على التوالي. ويدعم المرمرجي الدومينيكي رأيه في الثنائية المعجمية استناداً إلى بنية الكلمة في بعض اللغات السامية مستنتجاً أن «المضاعف

1- أمين فاخر : ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية. ص 6، مكتبة الكليات، القاهرة 1978.

2- حامد عبد القادر : ثنائية الأصول اللغوية، ص 119، القاهرة.

3- إبراهيم أنيس : تطور البنية في الكلمات العربية، ص 166 ، مجلة مجمع اللغة العربية، 11 / 1959.

4- E. Renan : de l'origine du langage, P 18.

5- Max Muller : Science du langage, p 295. Edit Auguste Durand Editeur, Paris, 1864.

6- جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية، ص 112 وما بعدها، ومقدمة العلايلي، صص 123 ـ 124.

العربي الذي يقال إنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية لا نَجِدُ مقابله في السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر. مثلاً مَصَ مقابل مَصَّ وبحذاء حَمَ = حَمَّ وبازاء مَسَ = مَسَّ وهكذا كل المضاعفات التي هي بالحقيقة ثنائيات. والثنائي وارد في كل الساميات متصفاً بمعنى حقيقي وتام»[1].

سبقت الإشارة إلى أن رينان افترض أن السامية النموذج كانت «تتكون من بنية ثنائية في أول نشأتها»[2]. ويذكر رينان جملة من الأعلام الغربيين الذين ذهبوا إلى ما ذهب إليه في موضوع الأصل الثنائي لجذر الكلمات السامية والعربية.

3.2.3- الثنائية في ضوء اللسانيات الحديثة

يبين العدد الهائل من الكتابات والدراسات التي تناولت بالتحليل أو الشرح أو التطبيق النظرية الثنائية في شقيها التاريخي والمعجمي اهتمام اللغويين العرب المحدثين بهذه النظرية، والرغبة في الاستفادة منها سواء في تفسير نشأة اللغة العربية وبعض مظاهرها الصرفية والنحوية، أو في وضع ترتيب جديد للمعجم العربي. «ففي هذه النظرية فوائد جمة للمعجمية، منها تحلى الانسجام والتساوق في تشعب الألفاظ بعضها من بعض وتوسع المعاني وتطورها، مما هو واضح القصد في الحالة الثلاثية الحاضرة»[3].

في ضوء الثنائية التاريخية فَسَّر العلايلي كثيراً من الظواهر اللغوية التي لا تخضع في نظره لنظام دقيق لأنها من بقايا العهود السحيقة، ولأنها وليدة الفوضى والاضطراب كما هو الأمر بالنسبة لما أسماه بالمُعَلاَّت (مفردها مُعَل) مثل : (وعد) (وعاد) و(وعى)، وأشباه ذلك ألفاظ ثنائية الأصل ألحقت بالثلاثي[4].

إن القول «بالثنائية» يشكل فعلاً مرحلة هامة من تاريخ الفكر اللغوي الحديث. لقد كان لهذه النظرية أهميتها التاريخية ودورها الفعال في فهم كثير من مظاهر الاشتقاق اللغوي في اللغات السامية والآرية على حد سواء. بيد أن ظهور بعض المبادئ اللسانية التي أصبح اليوم مسلماً بها مثل «اعتباطية الدليل» تجعل من هذه البحوث موضوع تساؤل. إن «الثنائية» تقوم على القول بالعلاقة الطبيعية بين الصوت والمعنى إذ «نستطيع

1- المرمرجي الدومينيكي : المصدر نفسه، ص 381.
2- E.Renan : Histoire générale des langues sémitiques. p 92.
3- المرمرجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 383.
4- العلايلي : مقدمة لدرس لغة العرب، صص 133 ـ 134.

تعيين دلالة الحرف وصوته»[1]. بل إن «اللفظة حرفاً حرفاً هي جملة كاملة لا يوقف على معناها إلا من خلال الأحادية»[2]. وبذلك تُرْفَض اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول باعتبارهما المكونين للدليل اللغوي. يقول الشيخ العلايلي: «أما قول اللبنانيين فلا أسلم به (يقصد الاعتباطية) (...). أما الأخذ من الطبيعة فيختلف باختلاف البيئات. أنا سميت الثور ثوراً لأنه يثير الأرض أي يفلحها، في بيئة أخرى قد تطلق عليه تسمية مستمدة من صوته. يختلف الملحظ الإدراكي، فتختلف الكلمات ولا اعتباطية في الأمر»[3].

الواقع أن رفض الاعتباطية يجعل القول بالثنائية أمراً يصعب تقبله لما فيه من تكلف وافتراض عقليين لا يمتان للحقيقة اللغوية الراهنة في شيء. إن التخريجات الاشتقاقية التي تقدمها الثنائية مزج بين التحايل اللغوي والتعسف في التأويل. نحن لا نملك لغوياً المعطيات التاريخية التي يقوم عليها التفسير الثنائي. إن أبحاث العلايلي في الثنائية تتكامل نظرياً فقط دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوي[4]. إن الانطلاق من الجدول الهجائي يطرح علاقة المعاني الأولى للحروف أو الأصوات الطبيعية في مرحلة متأخرة عن بداية اللغة عند الانسان. فالجدول الهجائي يرتبط بالكتابة، وهي مرحلة متطورة من حياة اللغو عند الانسان. «لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها إلا في جدول الأبجدية، أي في الكتابة لا في اللفظ، والسبب أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم حروفا صامتة متفرقة بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات»[5].

ومن الجوانب الشائكة في الكتابات حول الثنائية سقوطها في إشكالية البحث في أصل بعض الكلمات العربية. إن اللغويين وهم يدرسون تطور البِنْيَات الصرفية أو النحوية أو المعجمية «يخلطون بين البحث في النشأة الأولى للكلمات وتطور بنيتها في العصور التاريخية، (مما) أدى إلى بعض الاضطراب والتناقض في علاجهم لها»[6].

1- العلايلي : المصدر نفسه، ص 132.
2- العلايلي : (حوار مع الشيخ العلايلي)، مجلة الفكر العربي، عدد 8 ـ9، ص 114 مارس 1979 بيروت.
3- حوار مع الشيخ العلايلي : مجلة الفكر العربي، عدد 8 ـ 9، ص 118، مارس 1979.
4- عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوي، ص 92.
5- المرمرجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 381.
6- ابراهيم أنيس : تطور البنية في الكلمات العربية، ص 168 عبد الصبور شاهين : المصدر نفسه، ص 86 وانظر كذلك : رياض قاسم : المصدر المذكور، ج 1، ص 84 وما بعدها.

ومرد هذا الخلط أن البحث في الثنائية اللغوية يجمع دون تمييز بين البحث في اللغة البشرية واللغة كنسق خاص. يتضح ذلك من خلال استعمالهم لكلمتي «اللغة» و«اللغة العربية» دون تمييز أو تحديد. يقول أحد الباحثين العرب : «نقول في اللغة أيضاً إنها بدأت طبيعية بحكاية الأصوات للدلالة على ما تصدر منه مما له صوت مثل، قط للقطع وهف لهبوب الريح والصهيل والنهيق والأطيط»[1]. فهو يتحدث عن «اللغة» وهو يقصد اللغة البشرية كنشاط عام، ثم لا يلبث أن يعطي أمثلة من اللغة العربية. هل يتعلق الأمر باللغة البشرية عامة أم باللغة العربية وحدها ؟

ويلاحظ أن الأبحاث الثنائية العربية اهتمت أساساً بالجانب التحليلي لتطور أصل الكلمة العربية مهملة الجانب الآني المتمثل في نسق مفردات اللغة العربية في حالتها الراهنة. إن البحث السليم في مجال الاشتقاق يقتضي الجمع بين نوعين من التحليل الخارجي التطوري والتحليل الآني، ولا يكفي الواحد دون الآخر[2].

يرى إبراهيم أنيس (1906 - 1977) أن النظرية الثنائية تفسر نمو اللغة وتطورها عكس ما يقتضيه العقل والمنطق. «إن الاتجاه في تطور البنية للكلمات نحو الاختصار والاختزال لا نحو التكثير أو التضخيم، أي إن اللغات في أقدم صورها المعروفة لنا، كانت تتضمن كلمات كثيرة الحروف طويلة البنية متعددة المقطع، وإن هذه الكلمات بتوالي العصور قد أصبحت قصيرة البنية قليلة المقاطع. وقد تم هذا نتيجة الميل العام لدى الإنسان في كل شؤونه الاجتماعية، ومنها اللغة، نحو أيسر السبل وبذل أقل مجهود»[3].

ومهما كانت الأحكام والنقود القاسية التي تعرض لها هذا النوع من الكتابة اللغوية، فإن الأبحاث العربية الثنائية المعجمية والتاريخية تشكل حقاً تحولاً هاماً داخل الخطاب اللغوي النهضوي في وقت تَقَوَّتْ فيه سلطة المعرفة اللغوية التقليدية. ويكفي أنها حاولت أن تعرف بآفاق جديدة في البحث اللغوي العربي، كما سنرى في الفقرة الموالية.

1- أحمد رضا : مولد اللغة، ص 44.
2- Pierre Guiraud : Structures étymologiques du langue française, P 5 Larousse.. Paris, 1967..
3- إبراهيم أنيس : المصدر المذكور، ص 168.

3.3- المنهج التاريخي المقارن واللغة العربية

1.3.3- أهمية الكتابة اللغوية التاريخية ـ المقارنة

تكتسي الكتابة اللغويةِ العربية المندرجة في إطار المنهج التاريخي المقارن أهمية بالغة، على الأقل من زاويتين :

ـ **أولا** : دراستها لبعض قضايا اللغة العربية من وجهة نظر تاريخية ومقارنة. وقد يكون حدث هذا لأول مرة في تاريخ الدرس اللغوي العربي. «فقد ركز القدماء دراستهم على المادة والقاعدة أو على القاموس والنحو و الصرف، ولم يهتموا بدراسة التطور اللغوي إلا اهتماما جانبيا تمثل في نقل بعض ما سموه من لهجات تقرب أو تبعد من الفصحى»[1].

ـ **ثانيا** : التعريف بأسس ومبادئ بعض التصورات والمناهج الجديدة في البحث اللغوي العالمي، ومنها المنهج اللغوي التاريخي المقارن.

لقد كشفت الأبحاث اللغوية العربية أهمية المنهج التطوري والتتبع التاريخي في نشأة بعض الظواهر اللغوية العربية وتطورها مُسَاهِمَةً بذلك في تجديد «مقدار المسافات التي عملها التطور في اللغة على مختلف الأنحاء، سواء في الإعراب والإعلال والموازين والاشتقاق والأفعال والمصادر»[2]. ومكنت الثنائية المعجمية بدورها بعض اللغويين العرب من إعادة ترتيب المعاجم العربية بتنظيمها تنظيماً جديداً كما هو الأمر في «محيط المحيط» لبطرس البستاني و«أقرب الموارد لسعيد الشرتوني و«البستان» لعبد الله البستاني وإن خالف في الواقع تنظيم المعاجم العربية القديمة أو بالأحرى عدم التنسيق فيها[3].

واستعانت البحوث اللغوية العربية التاريخية بنتائج المقارنة بين العربية والساميات والحاميات (وحتى الآريات) أمكن معها الوصول إلى كثير من المعلومات التاريخية

1- عبد الرحمان أيوب : الحقائق التاريخية وأثرها في النظم اللغوية الوصفية، ضمن أعمال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، ص 58 منشورات مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1983.

2- عبد الله العلايلي : مقدمة لدرس لغة العرب، ص 178.

3- المرمرجي الدومينيكي ؛ المصدر المذكور ص 383.
عبد الرحمان أيوب : الحقائق التاريخية وأثرها في النظم اللغوية الوصفية، ص 58 وما بعدها.

حول تطور الأصوات العربية وطبيعة بنية مفرداتها[1] من حيث معرفة الحروف الأصلية والزائدة ومعرفة الكلمات المركبة. كل ذلك يساعد على الإلمام بتاريخ اللغة العربية. وكان من نتائج المقارنة «اجتلاء معنى ما غمض من لغتنا والنظر في وجوه الشبه والاختلاف بين دلالات بعض الألفاظ. وإذا كان لهذه ما يقابلها في اللغات السامية الأخرى تسهل علينا أن نقارن بينها فترد الألفاظ إلى أصولها، ونستطيع اجتلاء المعاني المختلفة للفظ الواحد، ومعرفة الأصلي والفرعي منها وتقصي التطور من معنى إلى آخر»[2].

ويتعذر علينا عرض تفاصيل كل الدراسات العربية التي قيم بها في إطار المنهج اللغوي التاريخي المقارن، لذلك نكتفي بتقديم جملة من الملاحظات حول المصادر التي اعتمدتها هذه الدراسات والنظر في القيمة النظرية والمنهجية للنتائج المحصل عليها في ضوء اللسانيات التاريخية المقارنة.

2.3.3- مصادر الكتابة اللغوية التاريخية ـ المقارنة

إن رواد الفكر اللغوي العربي التاريخي درسوا اللغة العربية من وجهة تاريخية ـ مقارنة مستفيدين فعلاً مما قدمته المباحث اللغوية الغربية من مناهج تاريخية ومقارنة، غير أن كتاباتهم تميزت في مجملها إما بعدم الحديث مطلقاً عن الأسس النظرية والمنهجية التي اعتمدوها، وإما بالحديث عنها بشكل عام دون إعطاء التفاصيل الكافية عنها. وكثرت لديهم العبارات التي تحيل على المناهج اللغوية الجديدة في الغرب، دونما تحديد أو ضبط. ومن ذلك قولهم المتكرر: «ويرى علماء اللغة». وتدعيماً لما نقول نورد المثالين التاليين. يقول العلايلي: «أذكر أني رأيت بحثاً لمستشرق كبير ذهب فيه إلى أن....»[3] دون أن يحدد اسم المستشرق ولا اسم بحثه. ويتحدث المرمرجي الدومينيكي عن المنهج المقارن دونما ضبط أو توضيح. يقول «من العلوم العصرية التي نشأت على يد أرباب البحث في البلاد الغربية «علم المقارنة» الذي طبقوا أصوله على مختلف الفروع العلمية، فنجم عن ذلك حقائق ثمينة ومفيدة، فهناك اليوم

1- أحمد نصيف الجنابي: ملامح من تطور اللغة العربية، ص 16 ـ 18، دار الرشيد للنشر، بغداد 1981.
ابراهيم السامرائي: فقه اللغة المقارن، ص 63 ـ 74، دار العلم للملايين، بيروت 1968.
2- زكي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية: دراسة مقارنة، ص 4 دار النهضة العربية، بيروت 1975.
3- عبد الله العلايلي: مقدمة لدرس لغة العرب، ص 142. وقد سبقت الملاحظة نفسها بشأن كتابة زيدان في «الفلسفة اللغوية» و «اللغة العربية كائن حي».

علوم مقارنة الفلسفات والشرائع والآداب واللغات. ضمن دائرة اللغات تولدت موازنة الصوتيات والصرفيات والنحويات والمعجميات، ومن ذلك كله المقارنة الألسنية السامية»[1].

ما هذه الأصول؟ وكيف تولدت الموازنات المشار إليها؟. وما مبادؤها ؟ ذلك ما لا يحدده المرمرجي بالرغم من أن بحثه في الثنائية المعجمية يندرج في إطار المقارنة بين اللغات السامية[1].

بيد أن بعض الدراسات قد تذكر أسماء العلماء اللغويين كما عند أحمد رضا في «مولد اللغة» حيث يرد ذكر آدم سميتز وسدولك ستوارتز وماكس مولر ونولدكه وسايس وسبرنجر، لكن دون إعطاء أي معلومات بشأن مصادرهم اللغوية في الموضوع.

إن عدم تحديد المصادر تحديداً دقيقاً ـ وكما هو (معمول) به في الدراسات العلمية ـ ليس سمة تخص الكتابة اللغوية التاريخية وحدها، بل إنها تكاد تكون سمة عامة بالخطاب اللغوي العربي النهضوي. تمثيلاً لما نقول نورد بعض العبارات التي تحيل على الدراسات اللغوية الحديثة دونما ضبط للمصادر المحال عليها. يقول أمين الخولي : «وهو رأي علماء اللغات في العصر الحاضر من عرب وعجم»[2] ويردد محمود تيمور عبارة «يرى علماء اللغة» التي سبقت الإشارة إليها في غياب أي تحديد لهؤلاء العلماء من حيث إطارهم النظري والمنهجي[3]. ويؤكد غياب ذكر المصادر خلو كثير من الكتابات اللغوية العربية التاريخية المقارنة من أي تبث بالمصادر المعتمدة من قبل رواد الفكر اللغوي العرب المحدثين.

بيد أن غياب ذكر المصادر اللغوية الغربية لا يعني مطلقاً عدم قدرة المحلل المتتبع لهذه الكتابات على اكتشاف المصادر الحقيقية التي نهل منها اللغويون العرب في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إن كثيرا من المفهومات والمصطلحات التي استعملوها أو الآراء والتحاليل التي بسطوها تعكس جلياً المنابع الفكرية التي غرفوا منها. إن البحث في إشكالية أصل اللغة ونشأتها، والحديث عن تصنيف اللغات في

1- المرمرجي الدومينيكي : المصدر المذكور، ص 374.
2- أمين الخولي : مشكلات حياتنا اللغوية، ص 33.
3- محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية، ص 82. المكتبة العصرية، بيروت، د.ت. (1958).

فصائل وعائلات، والمقارنة بينها للكشف عن أوجه التشابه والاختلاف لإعادة بناء الصورة التي كانت عليها «اللغة الأم» من الموضوعات الرئيسية التي انكب عليها اللغويون المقارنون خلال القرن التاسع عشر وهي أيضا الموضوعات التي تناولتها بنسب متفاوتة كتابات معظم اللغويين التاريخيين والمقارنين العرب.

مما لاشك فيه أن أهم مصدر فكري عام أثر في لغويينا هو كتاب «أصل الأنواع» لداروين الصادر سنة 1859. ولا تخلو كتابات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من مفاهيم ومصطلحات نظرية الارتقاء والتطور الداروينية. وحملت بعض الكتابات اللغوية العربية عناوين دالة على هذه النظرية مثل :

- «اللغة العربية كائن حي» لجورجي زيدان (1904).
- «حياة اللغة وموتها» لمارون غصن (1925).
- نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها لأنستاس الكرملي (1938).

ولعل أبرز من سار في نهج النظرية الداروينية من اللغويين العرب صاحب «مقدمة لدرس لغة العرب» (1938). وقد اعتمد العلايلي في تحليله اللغوي طائفة كبيرة من المفهومات المستمدة من نظرية داروين في الارتقاء الطبيعي والانتقائي، ونذكر من المفهومات التي تمتلئ بها مقدمة العلايلي على سبيل التمثيل لا الحصر مايلي :

الطفولة اللغوية (ص : 133) أدوار النشوء (ص : 138) الطفرة (ص : 138). النشوء اللغوي (129) الكائن الحي (142 - 148) أسباب البقاء (142) الحيوية (143 - 142)، وجود أرقى (ص : 142)، التطور (142). نشوء نظامي (143)، الناموس العام (148). سلم ارتقائي (157)، فصائل الأنواع (166). البناء العضوي للكائن الحي. (166)، غلبة الاصلح (180). الرقي الوضعي ....الخ.....

وكان لسلامة موسى الفضل في ترويج مفاهيم الداروينية وإشاعتها بين الجمهور مطبقاً بعضا منها على اللغة العربية حينما كان يطالب بضرورة تطويرها وتنميتها وتيسيرها في المجتمع[1].

1- سلامة موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية. سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 4 / 1964. ط 1 / 1945 القاهرة. انظر خاصة، ص 17. اللغة والتطور البشري وفي ص 27 وما بعدها : الانثربولوجية واللغة العربية.

نستخلص من الملاحظات السابقة أن اطلاع رواد الفكر اللغوي العربي الحديث على المصادر اللغوية الغربية أمر واضح يجعلنا نقول مؤكدين إن لغويينا بدون استثناء ـ سواء أصرحوا بذلك أم لم يفعلوا ـ اطلعوا على كتابات «رينان» و«ويتني» و«دارمستتر» و«بريال» و«مايي» و«سايس» إضافة إلى «أصل الأنواع» لداروين وتطبيقاته اللغوية عند «شلايشر» و«ماكس مولر». لكن ماذا استفاد اللغويون العرب من مصادر المنهج اللغوي التاريخي المقارن ؟ وكيف تمثلوا مبادئ البحث التاريخي ـ المقارن ؟ وما القيمة النظرية والمنهجية لأعمالهم في ضوء الأبحاث اللسانية التاريخية ـ المقارنة ؟

3.3.3- القيمة النظرية والمنهجية للكتابة اللغوية العربية في ضوء اللسانيات التاريخية ـ المقارنة

يتضح أن القضايا الكبرى التي تناولها التاريخيون والمقارنون العرب تستدعي جملة من الملاحظات وذلك في ضوء نفس المصادر التي أخذوا عنها :

أ ـ **في مجال المقارنة** : درست الكتابة العربية المقارنة مختلف أوجه العلاقة بين اللغة العربية وعدد من اللغات مثل : العبرية والأكادية والسريانية والحبشية والمجرية والفرعونية والبربرية واللاتينية واليونانية والفارسية والهندية والألمانية والإنجليزية ...وغيرها من اللغات الإفريقية والأسيوية.

وحاول الباحثون العرب إثبات علاقة القرابة بين العربية واللغات المدروسة. ويستخلص من حصيلة هذه المقارنات التي قامت بها الكتابات اللغوية العربية أن اللغة العربية هي «أم اللغات». وبذلك يمكن القول إن كثيرا من هذه المقارنات أبعد ما تكون عن البحث العلمي الموضوعي. وذلك للأسباب التالية :

ـ إن العمل المتبع في المقارنة بين اللغتين الإنجليزية والألمانية واللغة العربية بعيد كل البعد عن المناهج العلمية في هذا الباب، لأن المقارنة تتطلب بعض المتشابهات اللغوية في الصوت أو الصرف أو الاشتقاق أو التركيب.

ـ ليس هناك من صلة أو وشائج لغوية حقيقية بين اللغة العربية واللغة الألمانية»[1] أو غيرها من اللغات الهندو أوروبية.

1- نوري سوداني : حول الصلة بين العربية والألمانية : أوهام لغوية، ص 32، مجلة المورد، مجلد 6، عدد 1 بغداد 1977.

لقد سبقت الإشارة إلى أن كل تجانس صوتي أو تشابه لفظي بين لغتين لا تنتميان لنفس الفصيلة اللغوية ليس سوى صدفة. إن القول بوجود قرابة لغوية بين العربية والآريات كما يقول بذلك الكرملي وعبد الحق فاضل وغيرهما لا يستند إلى أسس تاريخية أو معطيات لغوية تبرر المقارنة نفسها، بَلْهَ أن تدعم نتائجها، «لأن اللغة المشتركة تقتضي حضارة مشتركة. فليس هناك عملياً مقارنة إلا حين تتمكن لغة ما من أن تنتشر في مجالات لم تكن مستعملة فيها من قبل»[1]. ويتضح مما بين أيدينا من مواد المقارنة أن اللغويين العرب المحدثين بنوا مقارناتهم اللغوية المتنوعة على معطيات تاريخية وحضارية غير مؤكدة. «فافتراض (الكرملي) أن الجرمان الآريين اتصلوا عن طريق إيران بالعرب في العراق شيء يفتقر إلى السند التاريخي. وإذا كان هذا التقارب الضئيل في الألفاظ، فليس لنا أن نوسع مقالتنا بالقول في مسائل تاريخية لم تعرف ضبطا وتحديدا»[2].

ومعلوم أن الحديث عن «القرابة» بين لغتين أو أكثر يقتضي من الناحية اللغوية الصرف توفر مظاهر التشابه الصوتي والصرفي والاشتقاقي والتركيبي. ويتم رصد هذه المظاهر لا في صورتها الحاضرة، وإنما في تطورها التاريخي على ضوء التغيرات التي عرفتها في الزمان والمكان، ومعرفة الأسباب الاجتماعية والنفسية واللغوية التي أدت إلى هذا التطور[3]. لذلك نرى أن المقارنات اللغوية التي قيم بها حول العربية لم تشمل جميع المستويات في إطار نسقي، وإنما اكتفت بانتقاء مجموعة من المفردات أو الأصوات، فقارنت بينها في مستوى التشابه الدلالي أو الاشتقاقي أو التجانس الصوتي. وسواء أتعلق الأمر بالمقارنة الصوتية أم الدلالية، فإن الملاحظ هو غياب أي حديث عن القواعد العامة الضابطة للمقارنة. إن التقارب الصوتي أو الصرفي أو الدلالي ليس له قيمة منهجية إلا إذا كان خاضعا لقواعد صارمة[4] على نحو ماهو معروف في قواعد بوب F.Bopp (1791 - 1869) الصرفية وقواعد كريم J.Grimm الصوتية.

1- A. Meillet : Linguistique historique et linguistique générale. p 17 . Champion, Paris. 1906 / 1965.

2- ابراهيم السامرائي : الأب أنسطاس الكرملي وآراؤه اللغوية، ص 90، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1969.

3- فندريس : اللغة، ص 373، ترجمة محمد القصاص و الدواخلي، القاهرة 1950.

4- A.Meillet : Linguistique historique et linguistique générale, p.41.

حصر مايي A.Meillet (1866 - 1936) منهجية المقارنة اللغوية في طريقتين : «المقارنة من أجل استخلاص : إما القوانين العامة وإما الملاحظات التاريخية، وهذان النوعان من المقارنة معقولان معا، لكن يختلف الواحد منهما عن الآخر»[1].

لقد اهتمت الأبحاث اللغوية التاريخية العربية بتقديم ملاحظات تاريخية خارجية عامة، سواء أتعلّقَ بالانسان العربي من حيث نشأته وانتقاله واختلاطه بغيره، أم بالتاريخ العام للغة العربية ومدى قدرتها على الصمود في وجه العوامل الخارجية سياسيةً كانت أم حضارية. أما الاهتمام بالمقارنة من أجل «القوانين العامة» أو «بنسق» الظواهر المقارن بينها، فإن االبحث عند اللغويين العرب لم يتجاوز نطاق المقارنة بين كلمات عربية متفرقة ونظيراتها في لغات أخرى سامية أو حامية أو آرية. إن المقارنة ـ وكذلك التطور ـ التي تكون لها دلالة نظرية ومنهجية هي التي تستند في تحليلاتها إلى النسق بكامله سواء أفي مستوى الأصوات أو الصرف أو الاشتقاق، بينما نلاحظ أن المقارنة عند اللغويين العرب انحصرت في اعتمادها مواد لغوية محدودة جعلها تظل مرتبطة بهذه المواد القليلة ولا تتعداها. ولأنها تفتقر إلى أي سند نظري أو منهجي يقود خطاها ويحدد أهدافها اللغوية الصرف، فإن أعمال المقارنة عند اللغويين العرب تحولت في جل الكتابات إلى مفاضلة بين العربية وباقي اللغات.«إن كل هذه الأعمال لم تزودنا بدراسة مطبقة من نوع دراسة بروكلمان التي خصصها منذ سنة 1906 لمقارنة اللغات السامية»[2].

ب ـ في مجال النشوء والارتقاء

لم يذهب اللغويون العرب الذين أخذوا بفكرة الارتقاء والنشوء الطبيعي بعيدا في استخلاص النتائج النظرية والمنهجية المتعلقة بالبحث اللغوي كما فعل شلايشر وهو أبرز من طبق الداروينية في دراسة اللغة[3]. لقد قاده تطبيق الداروينية على اللغة إلى التمييز بين «فلسفة اللغة» و«علم اللغة» والكّلوطولوجيا (glotologie) والفيلولوجيا

1- A.Meillet : La méthode comparative en luiguistique comparée, p1 , Champion; Paris 1925.

2- رشاد الحمزاوي : العربيّة والحداثة أو الفصاحة فصاحات، ص 220. المعهد القومي للتربية، تونس 1982.

3- A.Schleicher : la théorie de Darwin et la science du langage, weimar. 1863.

على أساس اختلاف موضوع كل منها. تدرس «فلسفة اللغة» اللغة في علاقتها بالأفكار المجردة. إنها جزء من الفلسفة[1]، بينما يتجه علم (Glothique) مباشرة إلى دراسة اللغة ذاتها كشيء معطى، أي اللغات المحدد[2]. وتكون الفيلولوجيا مجالاً تاريخياً هدفها تحديد الحياة الروحية للشعوب والجماعات العرقية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ البشرية[3]. وكان لهذه التمييزات أهمية كبرى في قيام اللسانيات كعلم مستقل عن الدراسات الأخرى التي تناولت اللغة بالدرس والتحليل[4].

إن الدراسات اللغوية العربية التي تبنت الارتقاء والنشوء لم تهتم أبدا بحدود بحثها اللغوي الجديد بالقياس للنحو أو المباحث اللغوية القديمة الأخرى. وهي بذلك لم تساهم في توضيح المعالم المنهجية للفكر اللغوي الجديد كما فعل شلايشر أولاً ثم سوسور (1856 - 1913) لاحقا.

ج ـ المنهج التاريخي المقارن : الحصيلة والآفاق

هل حققت البحوث اللغوية التاريخية العربية لأهدافها النظرية والمنهجية ؟ يبدو أن رواد الفكر اللغوي العربي لم يتمكنوا من فرض فكرة «التطور» في البحث اللغوي العربي ليصبح مفهوماً عاماً يمكن تطبيقه في دراسة مستويات اللغة العربية. إن التطور الحاصل في أصوات وبنية المفردات العربية الحديثة ودلالتها لم يؤخذ بعد بعين الاعتبار. ورغم أهمية النظرة التطورية «لا نرى للمعجميين اتجاهاً عاماً نحو درس التطور اللغوي للعربية والانتفاع بما يكشف عنه هذا الدرس من حقائق لغوية ذات أثر كبير في فهم مشكلات اللغة وعلومها، وذات أثر كبير في المحاولات الإصلاحية للغة وعلومها»[5]

إن فكرة «التطور» اللغوي لم تأخذ بعد طريقها إلى الدرس اللغوي العربي بالرغم من أن الجميع بات مقتنعا بأن اللغة تتطور، وأن التطور سنة طبيعية في جميع الكائنات الحية. وقد أدرك أحد المهتمين العرب بالبحث التاريخي في مجال اللغة العربية إهمال

1- A.Schleicher cité par A. Jacob in Genèse de la pensée linguistique, p 120 A, Colin, Paris. 1974.

2- A.Schleicher : ibidem.

3- Ibidem, P 121.

4- Jean Medina : les difficultés théorique de la constitution d'une linguistique générale comme science autonome. In Langages N°49, p 6, Mars 1978. Larousse, Paris.

5- أمين الخولي : مشكلات حياتنا اللغوية، ص 88، وانظر أيضا ص 97 و 102.

الباحثين العرب لمبدإ التطور. قائلا : «أراني في بداية حديثي مضطرا إلى تأكيد عدة أمور فرغ منها المحدثون من علماء اللغة منذ فترة طويلة وهي تعد عندهم الآن من البديهيات، على حين يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ممن بقي في الكهوف القديمة»[1]، ليخلص بعد ذلك مؤكدا حقيقة سبق أن أثبتها زيدان والكرملي وضومط والعلايلي وغيرهم منذ مطلع القرن العشرين، مفادها «أن اللغة كائن حي، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي بذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره»[2].

بيد أن عدم الاهتمام بالجانب التطوري في اللغة العربية لا يجب أن ينسينا ذكر عدد قليل من الكتابات اللغوية التاريخية التي بدأت في الظهور منذ الستينيات من القرن العشرين ونعني بها كتابات إبراهيم السامرائي وعبد الرحمن أيوب ورمضان عبد التواب وعبد الصبور شاهين[3]. على أن تاريخ اللغة العربية الدقيق ومظاهر تطورها في كافة المستويات لم يتم بعد بشكل شامل ومتكامل كما هو الشأن بالنسبة للغات أخرى. و«يندر أن تجد بالعربية دراسات مثل كتاب برجستر ايشر المسمى التطور النحوي للغة العربية»[4].

1- رمضان عبد التواب : التطور اللغوي علله وقوانينه، ص 5، دار الخانجي، القاهرة، 1989.
2- رمضان عبد التواب : المرجع نفسه، ص 5.
3- ابراهيم السامرائي : تاريخ اللغة العربية.
ـ التطور اللغوي التاريخي، ط 2. 1982 بغداد 1977.
4- ناجي علوش : لغتنا العربية، ص 60، مجلة الوحدة عدد 33 ، 34. عدد خاص عن اللغة العربية والوحدة، الرباط 1987. والكتاب المشار إليه صدر باللغة العربية سنة 1929 بالقاهرة.